# مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثالث ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــداد

المحرم الحرام ١٤٠٩هـ ـ ايلول ١٩٨٨م

# أبو المظفر الأبيوردي

## شاعر العروبة في القرن الخامس الهجري

الدكتور جميل سعيد
( عضو المجمع )

### مقدمة

مات الأبيوردى ، العالم والأديب الشاعر ، بإصبهان سنة ٥٠٧ هـ . قال العماد الأصفهاني (١) : « الابيوردي تولى آخر عمره اشراف مملكة السلطان مكلشاه بتناوله السمّ ، وهو واقف عند سرير السلطان ، فخانته رجلاه ، فسقط ، وحمل الى منزله » .

وقد سكت الذين تحدثوا عنه من القدماء ، عن تأريخ ولادته (٢) ، وفي الجزء الذي وصلنا من ديوانه ، وسمّاه « بالعراقيات » مدائح للخليفتين العباسيين اللذين عاصرهما ، وهما : المقتدى بأمر الله ، وقد توفي سنة ٤٨٧ هـ وولده المستظهر بالله ، وقد توفي سنة ٥١٢ هـ . وفيه مدائح لنظام الملك وزير السلاجقة المشهور ، ومديح لولديه الوزيرين عبد الله وأحمد ، ومديح لصدقة بن منصور بن دبيس ؛ امير الحلة ، ومديح للسطلان السلجوقي ملكشاه ولابنه السلطان محمد ، ومديح لبعض رجال العرب .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ؛ ٢٣٨/٧ ، ومقدمة ديوانه ؛ ٢١/١ .

(٢) حدد ميلاده ناشر ديوانه ومحققه بسنة ٤٥٧هـ . وحددها ممدوح حقى بسنة ٤٣٩ في كتابه : الابيوردى ممثل القرن الخامس في برلمان الفكر العربي ط : اليقظة العربية بدمشق .

ونحن نرى من هذا أن الأبيوردي عاش شطر حياته الهامّ في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، واوائل القرن السادس ، وربما كانت ولادته في اواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

وسنتحدث بايجاز عن بعض ملامح عصره هذا .

**عصـــره :**

مات الأبيوردي مسموماً بإصبهان سنة ٥٠٧ هـ بعد ان عاش نحواً من ستين عاماً .

وفي هذا العصر كانت البلادُ الاسلامية مضطربةً سياسياً واجتماعيا لقد وفد السلاجقة البدوُ من اواسط آسيا في اوائل القرن الخامس الهجري ، واستولوا على بلدان الخلافة العباسيّة في خراسان وفارس ، والعراق . وتأسست سلطنة السلاجقة العظام في بغداد في نحو منتصف القرن الخامس الهجري ( سنة ٤٤٧ ) . وبلغت اوجَها في عهد السلطان الب ارسلان (٤٥٥ ـ٤٩٥هـ) وعهد ابنه ملكشاه ( ٤٦٥ـ٤٨٥هـ ) وفي هذا العهد كان الابيوردي قد جاوز شبابَه الى كهولته . واختلف السلاجقة بينهم واقتتلوا ، وتفتّت دولتهم وتكونت منها دويلات كان اشهرها « سلاجقة الشام » .

اما الخليفة العباسي فلم تجاوزْ املاكه بغداد ، وسوادَ العراق وخوزستان . وكان حتى في رقعته الضيقة هذه مسلوب السلطان . اما مصرُ ، فكان فيها الفاطميون ، وكانت المنافسة بينهم وبين الخلفاء العباسيين شديدة .

كان الخلفاء العباسيون من مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ قد اصبح امرهم بيد الاتراك المتسلطين عليهم ؛ يبايعونهم ويعزلونهم ، وقد يسملون اعينهم او يقتلونهم اذا شاءوا .

يقول السيوطي (١) في احداث سنة ٤٨٤ هـ : « وفيها قدم السلطان ملكشاه بغداد ... ثم رَجَع الى اصبهان ، وعاد الى بغداد سنة خمس وثمانين عازماً على الشر ، فأرسل الى الخليفة المقتدي بأمر الله يقول : لابدَّ ان تترك بغداد ، وتذهب الى أي بلد شئت فانزعج الخليفة وقال : أمهلني ولو شهراً ، قال : ولا ساعة واحدة . فأرسل الخليفة الى وزير السلطان يطلب المهلة الى عشرة ايام . فاتفق مرضُ السلطان وموتهُ » ويقول السيوطي : « وعُدَّ ذلك كرامة للخليفة » ويقول : « وقيل إن الخليفة جَعَل يصوم فإذا أفطر جلس على الرماد ، ودعا على ملكشاه فاستجاب الله دعاءه ، وذهب الى حيث ألقت .... » (٣) .

ويقول السيوطي عن ملكشاه هذا (٤) : « ولما مات كتمتْ زوجته تركان خاتون موته ، وارسلت الى الأمراء سِرّاً فاستحلفتهم لولده محمود ، وهو ابنُ خمس سنين ، فحلفوا له ، وأرسلت الى المقتدى أن يُسلْطِنَه فأجاب ، ولقَّبه : ناصرَ الدنيا والدين » .

هذا هو الخليفة المقتدى بأمر الله ، الذي عاش الأبيوردي في ايامه وامتدحه بقصائد كثيرة يطلب من السلطان مهلة عشرة ايام يرحل بها عن بغداد فيجاب بهذا الجواب الفظ . ولا يجد الخليفةُ وسيلةً غير ان يصوم ويجلس على الرماد ويدعو عليه . ويموت السلطان وتبعث اليه زوجته تطلب سلطنة ابنها وله خمس سنين من العمر ، فيجيبها ، ويلقّبه « ناصر الدنيا والدين » .

وطبيعيٌّ الا يصفوَ الملكُ لناصر الدنيا والدين هذا . لقد خرج عليه اخوه بركياروق بن ملكشاه ، وحارب أنصاره وغلبهم ، فقلَّده الخليفة ايضاً ، ولقَّبه « ركن الدين » (٥) .

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٥ .
(٤) المصدر نفسه ؛ ص ٤٢٥ .
(٥) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤٢٦ .

وفي سنة ٤٩٢ هـ « خرج محمد بن ملكشاه ، وهو السلطان الذي سُقيَ الأبيوردي السمَّ في مجلسه ، على اخيه السلطان بركيا روق ، وكانت الحرب بينهما وانتصر محمد على اخيه ، فقلّده الخليفة ايضاً ، ولقّبه : « غياث الدنيا والدين » وخَطب له ببغداد . ثم جرت بينهما عدة وقعات . وقال : « وفي سنة ٤٩٧ وقع الصلح بين السلطان محمد وبركيا روق ، فأرسل الخليفة خلع السلطنة الى بركياروق ، واقيمت له الخطبة ببغداد » (٦) .

وفي سنة ٤٩٨ مات السلطان بركياروق فأقام الأمراء بعده ولده جلال الدولة ملكشاه ، وقلّده الخليفة وخطب له ببغداد وله دون الخمس سنين . قالوا : « فخرج عليه محمد واجتمعت الكلمة عليه ، فقلّده الخليفة وعاد الى اصبهان سلطاناً متمكنا ، كثير الجيوش » (٧) .

هذه هي حالة البلاد الإسلامية في المشرق ، حروب بين السلاطين لا تهدأ ولا تنقطع ، وليس للخليفة غير ان يُقرَّ المنتصرَ فيها ويلقبَه ويخلعَ عليه ، ويُخطب له (٨) .

وقد يعجب المرء ان يرى الخليفة ، وهو على حاله هذه من هوان السلاطين والأمراء تظـل له حرمتُه وقدسيّتُه . يقولون : إن يوسفَ بن تاشفين ؛ صاحبَ سبتة ومراكش ، أرسل الى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب ان يُسلطِنه وان يقلّده ما بيده من البلاد ، فبعث اليه الخليفةُ الخِلع والأعلامَ والتقليدَ ، ولقبّه بأمير المسلمين ، ففرح بذلك ، وسُرَّ به فقهاء المغرب .

وطبيعيٌّ ان يتبع هذه الحروب التي لا تهدأ ، والتي تتقلّب بين النصر والهزيمة حاجة الحكام الى المال . وقد يجرّهم هذا الى بيع الوظائف أو

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢٩ .
(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٨) المصدر نفسه ص ٤٢٥ .

إسنادها بالرشوة لغير الأكفاء . وطبيعيٌّ الاّ يسير العمالُ والحكام السيرة العادلة مع الناس لأنهم يريدون ، استردادَ ما دفعوه رشوةً ثمناً للوظيفة ، يقول الأبيوردي (٩) في هذا :

ألكنى الى هذا الوزير وقــلْ لــه
لقــد صرعتْنا خِلْفَةُ الدهر فانعَشِ
وراعِ – رعاكَ الله – احوالَ كوُفَنٍ
ونقِّر – هداكَ الله – عنّا وفتِّشــ
فعاملُنا يَزني ويَجنى ويَعْتــدى
وحاكمُنا يعلو ويُعــلى ويَرْتِشــي

وقد تسند الوظيفة الى غير الأكفاء ، بسلوك طريق الواسطة ، والأبيوردي يشير ايضاً الى انه حُرِمَ الحصول على ما يريد ، لأنه يأنف سلوك هذه الطرق ، يقول (١٠) .

ولكنني أغضيتُ جَفني على القــذى
ولــم ارضَ إدراكَ العُلى بالوسائط

ويتبع هذا عادةً تغيّرٌ سريع في الوظائف الكبيرة ؛ كالوزارة مثلاً ، ومن هنا يعمد الوزيرُ الى سلب غايةِ ما يستطيع بأقصر ما يستطيع من الوقت ؛ لأنه لا يضمن البقاءَ الطويلَ . يقول ابن الأثير (١١) في احداث سنة ٤٩٣ : « في هذه السنة بيعَ رَحْلُ بني جُهير ، ودورُهم بباب العامة ، ووصل ثمنُ ذلك الى مؤيد الملك » ومؤيد الملك هذا هو الوزير الذي كان الأبيوردي يلجأ اليه ويحتمي به . ويقول ابن الأثير : « ثم قُتلَ في سنة اربع وتسعين

(٩) ديوان الأبيوردي ١٣٧/٢ .
(١٠) الديوان نفسه ؛ ٢٧/٢ .
(١١) الكامل لابن الأثير ٣٣٧/١٠ .

مؤيدُ الملك وبيعَ مالُه وتركتُه ، وأخذَ الجميع الى الوزير الأعزّ » ويقول : « وقتل الوزيرُ الأعزُ هذه السنة . وبيع رحلُه . واقتُسمتْ اموالُه . وأخَذَ السلطان ومَن ولي بعده اكثرها ، وتفرّقت ايدي سبأ » ويقول في احداث(١٢) سنة ٥٠٠ هـ « وفي هذه السنة عُزِل الوزيرُ ابو القاسم عليُّ بنُ جُهير ، وزيرُ الخليفة ، فقَصَدَ دارَ سيفِ الدولة صدقةَ ببغداد ملتجئاً اليها ، وكانت ملجأً لكل ملهوف .. » ويقول : « وامر الخليفةُ بنقض داره التي كانت بباب العامة » ويعقّب على هذا بقوله : « وفيها عبرةٌ ؛ لأن أبا نصر بنِ جُهيْر ، بناها بأنقاض املاك الناس ، وأخَذَ بسببها اكثرَ ما دخل فيها ، فخرِبتْ عن قريب .. »

وفي هذه الحالة السياسية المضطربة ، اضطربت الحياة الإجتماعية ، فكثُرت السرقات ، وكثر تعدّي الناس على بعضهم البعض ، وفي ديوان الأبيوردي شكوى للوزير نظام الملك (١٣) يطلب فيها استعادة قُراه التي اغتصبها المغتصبون منه ، وهو يكرر هذا ؛ لأن الوزير لم يستعجل في اغاثته او اجابة طلبه . وزاد الحالة الإجتماعية سوءً ظهورُ دعوة الباطنية . يقول السيوطي في احداث سنة (١٤) ٤٩٢ هـ : « انتشرت دعوة الباطنية باصبهان » ويقول في احداث سنة ٤٩٤ : « كثر امرُ الباطنية في العراق وقتلُهم الناس » ويقول : « واشتد الخطبُ بهم حتى كانت الأمراءُ يلبسون الدروع تحت ثيابهم » . ويقول ابن الإثير في احداث السنة نفسها(١٥) : « ثم إن الباطنية قتلوا نظام الملك . وهي اولُ قتلة مشهورةٍ كانت لهم ، وقالوا :

(١٢) المصدر نفسه ١٠/٤٣٨ .
(١٣) ديوان الابيوردى ١/٣٥٤ .
(١٤) تاريخ الخلفاء ؛ ص ٤٢٨ .
(١٥) الكامل لابن الأثير ١٠/٣١٣ .

قَتَلَ نَجّاراً فقتلناه به » ويقول (١٦) : « وفي هذه السنة امر السلطان بركياروق بقتل الباطنية ، وهم الذين كانوا قديماً يسمون قرامطة » .

★ ★ ★

هذه هذه حالة الخلافة في المشرق ، وزاد في هذا أنّ الخلفاءَ العباسيين كانوا على غير وفاق مع الفاطميين بمصر . يقول السيوطي في احداث سنة ٤٩٠ : «(١٧) قيل إن صاحب مصر ، لما رأى السلاجقة واستيلاءَهم على الشام ، كاتَب الفِرنج يدعوهم الى المجيىء الى الشام ليملكوها ... » ويقول : « جاءت الفرنج فأخذوا نيقية ؛ وهي اول بلد اخذوه ، ووصلوا الى كفرطاب واستباحوا تلك النواحي ، فكان هذا اول الفرنج في الشام ..» ويقول ؛ في احداث سنة ٤٩٢ : « وفيها اخذ الفِرنج بيتَ المقدس ، بعد حصار شهر ونصف ، وقتلوا به اكثر من سبعين الفاً ، منهم جماعةٌ من العلماء والعبّاد والزهّاد ، وهدموا المشاهد ... وورد المستنفِرون الى بغداد فأوردوا كلاماً ابكى العيون ... وللأبيوردي في ذلك ... » ويذكر قصيدة للأبيوردي يحث بها الناسَ على نجدة إخوانهم المسلمين ، منها (١٨) :

مزجنا دماءً بالـدموع السـواجم
فلـم يبق منّا عُرْصَةٌ للمراحـم
وشرُّ سـلاح المـرء دمعٌ يُفيضه
إذا الحرب شُبّت نارُها بالصـوارم
فإيهاً بني الإسلام إن وراءَكـم
وقائعَ يُلحقْن الـذُرى بالمناسـم

(١٦) الصفحة نفسها والمصدر نفسه .
(١٧) تاريخ الخلفاء ؛ ص ٤٢٧ وما بعدها .
(١٨) الديوان ١٥٦/٢ ، والقصيدة في اكثر من عشرين بيتاً .

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها
على هَنَواتٍ ايقظت كلَّ نائم
واخوانكم بالشام يُضحى مَقيلُهم
ظهورَ المذاكي أَو بطونَ القَشاعم

ويقول :

دعوناكم والحربُ ترنو مُلحَّةً
إلينا بألحاظ النُسور القَشاعم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً
تُطيل عليها الرومُ عضَّ الأَباهم

في هذا العصر المضطرب عاش الأبيوردي ، ورأى الدولة الإسلامية في المشرق تعيش في فوضى . ورأى العربَ انسحبوا من ميدان الحكم والسياسة . وعندنا ان الأبيوردي كان يرى هذا كلَّه فيتحسَّر على الأيام التي حكم فيها العربُ هذه البلادَ ؛ في عهد اسلافه بني امية ، وكان يتوهّم ويطمح ، وهو ابنهُم ووريثُهم . أن يُعيد ايامَهم . وهيهات هيهات !

وسنعني بحديثنا عنه بناحية واحدة ، هي تعلّقه الشديد بالعرب والعروبة .

**لقبه ونسبه :**

كتب الأبيوردي نسبه في صدر ديوانه بقوله (١٩) : « قال فخرُ الرؤساء ، جمالُ العرب ، افضلُ الدولة ، اوحدُ العصر ، تاجُ خراسان ، ابو المظفّر محمدُ بنُ ابي العبّاس ، احمدَ بنِ اسحاق بن ابي العباس الإمام ، وهو محمدُ بنُ اسحاق بنِ حسن ، وهو ابو الفتيان بنُ ابي مرفوعة ، واسمُه منصورُ بن معاوية الأصغر ابنُ محمد بن ابي العباس ، وهو عثمانُ بنُ عنبسة

(١٩) ديوان الأبيوردى ؛ ١/٩٧ .

ابنِ عتبة بنِ عثمان بنِ عنبسة بن ابي سفيان ... » وتحدّث ياقوت (٢٠) عن « محمد بن احمد الأبيوردي الكُوفَني » ونقل سلسلة نسبه هذه ، مع بعض « إضافات فيهـا ، واكمـل نسبه بـ : صخـر بنِ حرب بن اميّة بنِ عبدشمس بن عبد مناف ، وقال : نقلتُ هذه النسبةَ من تاريخ جمعه منوجهر بنُ اسفر سيان بنِ منو جهر ... فقال فيه : « حُكى أنه كان من أبيورد ، ولم يُعرف له هذا النسب ، وأنه كان ببغداد في خدمةِ مؤيد الملك ابن نظام الملك ، فلما عادى مؤيد الملك عميدَ الدولة بنَ جُهير الزمه ان يهجوَه ففعل . فسعى عميدُ الدولة الى الخليفة ، بأنه قد هجاك ومدح صاحبَ مصر ، فأبيحَ دمُه ، فهربَ الى همذان ، واختلَق هذا النسب حتى ذهب عنه ماعُرِف به ... »

ويذكر ياقوت هذا ولا يعلّق عليه . ولكننا لا نرى في ديوان الشاعر ما يشير الى مديحه لصاحب مصر . على حين نرى فيـه قصيدةً يكتبها لبعض بني امية في الأندلس (٢١) ، يستحثه فيها على استردادِ دولتِهم الأموية في المشرق . ولا نرى في ديوانه اشارةً الى هذه التهمة التي نسبها اليه منو جهر بنُ اسفر سيان . والذي رأيناه في ديوانه : ان الخليفة يكتب اليه يطلُبُ عودتَه الى بغداد (٢٢) ، وانه ردّ برسالة (٢٣) طويلة بيَّن فيها : أنه إنما ترك بغـداد خوفاً من السعايات به . ولا نراه حين يمتدح خلفاء بني العبّاس يُشير الى اصحاب مصر من قريب أو بعيد كذلك .

وعندنا ان لو شاء الأبيوردي أو الكوفَني أن يختلقَ لنفسه نسباً ، وهو العالم النّسابة ، لاختلقه في غير النسبة الى معاوية او الى بني اميّة .

---

(٢٠) معجم الأدباء ؛ ٢٣٧/١٧ .
(٢١) ديوان الأبيوردى ؛ ٤٥٧/١ .
(٢٢) الديوان ٣٣٩/١ .
(٢٣) معجم الادباء ـ لياقوت ؛ ٢٣٦/١٧ .

إنه يعرف كُره أهلِ خراسان لبني امية ، وكُره بني العبّاس لبني أميّة ايضاً . ويعرف ، وهو العالم الأديب ، ان الشاعر ابا نواس ، وهو من اوجع الشعراء هجاءً ، أذ يعرف كيف « يضع الهِناءَ مواضع النُقَب » كما تقول العرب ، يهجو كاتب الأمين الخليفةِ ، اسماعيل بن صُبيح ، فلا يرى اوجَع له من أن يتهمه بالولاء لبني أميّة . ويقول فيه . وكأنه يخاطبه :

وإن ذُكر الجعديُّ أَذْريتَ عَبرةً
وقلتَ : أدال اللهُ من كلّ ظالم (٢٤)

ويقول ياقوت عن الأبيوردي (٢٥) : « وكتب مرة قصة الى الخليفة وكتب على رأسها : الخادمَ المعاويَّ » وهو اللقبُ الذي يُلَقِّب به الأبيوردي نفسَه . قال ياقوت : « فكره الخليفة النسبة الى معاوية ، واستبشعها . فأمر بكشط الميم وردّ القِصة فبقيت : الخادمَ العاوي » .

وبعدُ ، أترانا نأخذ بقول ابنِ اسفر سيان في أن الأبيوردي قد اختلق هذا النسبَ الذي يصلُ به الى معاوية وعبدِ شمس ، مع أن الكثير من مدائحه كانت في الخليفتين العباسيين : المقتدى بأمر الله والمستظهرِ بالله ، وهما الخليفتان اللذان عاصرهما في حياته . وهو النسّابة العارف بوقع الأمويين من نفوس العباسيين ! ؟

إن الأبيوردي يكرّر نسبته ونسبةَ ذويه الى معاوية ، والى عبد شمس . يقول مفتخراً :

انا المعاويُّ أعمامي خلائفُ مِن
أبناءِ عدنانَ والأخوالُ مـن سبأ

(٢٤) ديوان ابى نواس ؛ ص ١٤٠ .
ط : الحلبى بمصـر سنة ١٣٢٢هـ .
(٢٥) معجم البلدان ؛ ٣٤٢/٦

فما لجـدىّ ولا لي في العُـلى شبهٌ
وأين شِبهُ أبي سُفيان فـي المـلأ

ويقول :

فكم أغُضّ ناظـري على قـذىً
وتنطوي ترائبـي عـلى جَـوى
في عُصَبٍ يُضني الكريـمَ قربُهم
وشـرُّ ادوائك مـافيـه الضنـى

وقد رما نـي نكَـدُ الدهـرِ بهم
ومـا درى ايَّ معـاويٍّ رمـى

ويقول :

يـامن يسـاجلني وليس بمـدركٍ
شأوي ، وأين له جـلالةُ منصبي !؟
المجـدُ يعلـم ايُّنـا خيرٌ أباً
فاسألْـه تعلـمْ ايَّ ذي حسبٍ أبي
جَـدّي معاويّـة الأغرُّ سمتْ بـه
جُرثومـةٌ من طينهـا خُـلِـقَ النبـي
وورثتُـه شرفاً رفعتُ منـارَه
فبنـو اميَّـة يفخرون بـه وبي

ويمدح اسرته ، فيقول :

ونحن معاويّـون يرضـى بنـا الورى
ملـوكاً ، وفينـا مِن لـؤيٍّ لواؤهـا
ومـا بلغت إلاّ بنـا العربُ العُـلى
وقد كان منـا عزُّهـا وثراؤهـا

**اسرته وموطنه وثقافته :**

مرَّ بنا حديث ياقوت عن محمد بنِ أحمد الأبيوردي الكُوفَني» ومعلومٌ أن الشاعر محمدَ بنَ احمد هذا ، قد شُهر بالأبيوردي . والأبيوردي : نسبة الى ابيورد من أعمال خراسان . ويقول السمعاني : إنه وُلد بقرية كوُفَن ، القريبة من ابيورد ، وإنه لهذا السبب يُعرف بالكُوفَني (٢٦) . وكوُفَن هذه كما يقول ياقوت : « (٢٧) بليدة صغيرة بخراسان على ستة فراسخ من أبيورد . وقد قال ياقوت في حديثه عنها : ومنها ابو المظفّر محمد بن احمد الأبيوردي . . . . » وذهب الى أن اولَ من بناها عبدُالله بن طاهر في أيام المأمون .

ومع شُهرة الشاعر بالأبيوردي ، فإننا لا نراه يذكر هذه النسبة لنفسه في شعره ، ولا نراه يذكر « اباورد » أو « باورد » ولا يشير اليها ، في شعره ايضاً . على حين نراه يذكر « كوُفَن » هذه ويتشوَّق اليها ، كلما حزبته الغربة في أسفاره . يقول (٢٨) :

سقياً لكوُفَنَ من أرض إذا ذُكرتْ
هاجتْ على عُدَواءِ الدارِ أشواقا
يطيب عِرقُ الثرى فيها بكل فتىً
من أُسرتي طابَ أعراقاً وأخلاقا
لوى معاويةُ ابنُ الأكرمين أباً
منهم الى المجد أبصاراً وأعناقا

نشأ الأبيوردي في كُوفَن من اسرة عربية امويّة محترمة . يقول ياقوت :

---

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ؛ ٤٢٢/١ .
(٢٧) معجم البلدان ؛ ٣٤٢/٦ .
(٢٨) ديوانه ؛ ٧٥/٢ وانظر ص ٧٩ ، ٨٤ .

« إنّ معاويةَ الأصغرَ – وهو الذي ينتسب اليه الشاعرُ الأبيوردي ، اوّلُ مَنْ تديَّر كُوفَن . وان أولَ من نصب المنبرَ فيها عبدُالله بنُ الحسين ابنِ معاوية ، وانَّ عمَّ الأبيوردي ؛ ابا علي الحسنَ بنَ محمد بنِ احمد بنِ اسحاق كانت له الخطابةُ فيه . يستنيب فيها من يختاره ؛ قال : « وربّما تولاّها بنفسه في الأعياد والأشهر الحرم » . ولا يخفى ما للخطابة عند المسلمين من اهميَّة اذ فيها الإشارةُ الشرعيّةُ لتولى اولى الأمر مقاليد الرئاسة في الحكم ، واقرار الناس لهم فيها بدعاء الخطيب . ومعلومٌ ان الخليفة كان هو الذي يأمر بهذا .

اما ابوه ابو العباس احمد ، فكان سيّداً كريماً مهيباً ، يملك الضياع والقرى (٢٩) . ويصفه الأبيوردي بأنه ربُّ قلم وسيف ، ومثوى وفود ، ومقرّ ضُيوف ، وان الرياسةَ جاءته بعد انقسام بين أهل البلد ، وأن المتخاصمين ارتضوه رئيساً ، فأقرَّ نافرة القلوب ، كما يقول الأبيوردي وضمن العدل والطمأنينة للضعفاء ، اذ رأى فيه الأقوياء ما يكبح جماحَهم ، يقول من قصيدة (٣٠) .

مدَّتْ هواديها الرياسةُ نحوه
في حادث يلدُ الشقاق مخَوفِ
فاقرَّ نافرةَ القلوب فلم يبِتْ
اسدٌ يُجيل الطرَف نحو غريف
ضمن الحياة لمعتفيه يراعُه
ورمى العداةَ حُسامُه بحتوف

(٢٩) في ديوان الأبيوردى قصيدة يمدحه فيها ، وفي ديباجتها : يستبطئه ما كان وعده باستخلاص ضياعه بكوفن ، وقريته بنسا ٦٠٦/١ . وفي الديوان : يمدح نظام الملك ... وكان وعده باستخلاص قريته المدعوة جاورس من اعمال نسا ، وردّها اليه ؛ ٣٥٤/١ .
(٣٠) الديوان ؛ ٦٥١/١ .

أمّا امه فكانت من اشراف العجم ، يقول مفتخراً (*)

ولي دوحةٌ فـوق السماوات فرعُها
وتحتَ قرارِ الأرض من عِرقها شُعَبْ
فخالي رفيع السَّمْكِ في العُجم بيتُه
وعمي له جُرثومةُ المجـد في العَربْ

وفي ديوانه قصيدة طويلة (٣١) بعنوان : « وكتب الى بعض اخواله من سروات العجم » .

ومع ان حياة الأبيوردي لم تكن بالقصيرة ، وتجوالَه وتنقّلَه في البلدان ليس بالقليل ، وصلتَه بالخلفاءِ والوزراء والسلاطين والأمراء ، وغيرهم من كبار رجال الدولة في عصره ، ليست بالقليلة ولا بالمجهولة ؛ مع هذا فإنّ ما وصلنا مما دوّنه المؤرخون عنه ، لايكاد يسعف بالتفصيل لنواح كثيرة من ترجمته . فنحن مثلا لا نعرف عن اسرته اكثر مما بينا عن ابيه .

لعلّ اوسعَ ترجمةٍ له تلك التي اوردها ياقوتُ في معجمه ، معجم(٣٢) الأدباء وقد كتب فيها الكثير من اشعار الأبيوردي ، ونقل فيها مما كتبه عنه السابقون ؛ نقل عن منوجهر بنِ اسفرسيان ، وابنِ منْده ، والسمعاني ، والعمادِ الأصفهاني وابنِ طاهر المقدسي ، وابنِ التعاويذي ، وابن الخشّاب ، وغيرهم ....

وكان اهم من هذه الترجمة عندنا ما أورده الأبيوردي عن نفسه في ديوانه (٣٣) الذي جمعه بنفسه ، والذي وصلنا نسخٌ منه ، وهو عمدتنا الأولى في الحديث عن الأبيوردي .

---

(*) الديوان ؛ ١٢٦/٢ .
(٣٢) معجم الأدباء ؛ ٣٤١/٦ ـ ٣٥٨ . (٣١) الديوان ؛ ٦٢٩/١ .
(٣٣) حقّق الديوان ، على نسخ خطية كثيرة ، تحقيقاً جيداً ، ونشره بجزءين كبيرين الدكتور عمر الأسعد ، وطبعه بدمشق سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

**ثقافتــه :**

مرَّبنا ان الأبيوردي من اسرة لها مكانتُها الإجتماعية ، إذ كان احدُ حدودِه هو اولَ من تديَّر القصبة ؛ كوفَن ، واحدُهُم اولَ من بنى فيها المنبرَ ، وعمُّه كانت اليه الخطابة ، وابوه سيدٌ كريمٌ مهيب ، له الرياسةُ والفضلُ ، ويَملك الضياعَ والقُرى .. وعندنا ألاَّعجبَ بعد هذا ان يوجَّه الأبيوردي من صِغره الى الدراسة والتعلُّم . وقد ذكرتْ المراجعُ التي تحدَّثت عنه طائفةً غيرَ قليلةٍ من الشيوخ الأعلام ، الذين درس عليهم ، ولعلَّ اهمَهم ؛ مما يتصل بموضوعنا الذي سنتحدث عنه : الشيخُ ابو بكر عبدُالقاهر الجرجاني النحويّ ؛ صاحب كتابي : « دلائل الإعجاز » «واسرار البلاغة» . وأهميةُ الرجل عندنا في أنه كان فريداً في ذوْقِه للأدب ونقده له . وكان من الذاهبين الى التعمّقِ بدراسةِ اللغة العربية ، الى الدرجة التي توصِلُ بذوق الدارس الى إدراكِ الإعجاز في القرآن الكريم . وقد ذهب برأيه هذا الى القول بأن ايمانَ المسلم لا يكون كاملاً إلا اذا وَصَلَ الى هذه الغاية ، وإلاّ فإنه يكون مُسلماً بالتقليد ، وفي هذا لا يكون ايمانُه عميقاً عمق الذي الذي يُدركُ الإعجازَ بنفسه . وكان يرى ان دراسةَ الشعر العربي ، والتنبّهَ الى مواطن الجمال فيه ، تكون الوسيلةَ الأولى لإيصال صاحبها الى ادراك الإعجاز البيانيّ في القرآن الكريم . ويبدو لنا أنّ الشاعر الأبيوردي قد تأثر في مقدّمته لديوان شعره ، فيما كتبه عن الشعر بما قاله عبدُالقاهر الجرجانيُّ عن الشعر في كتابه دلائل الإعجاز . وأنَّه استفاد من توجيهات الجرجاني فيما نراه في ديوانه من تعمّق في اللغة ، واطّلاع على اساليب الشعراء ومعانيهم .

★ ★ ★

كان الأبيوردي متعدّدَ نواحي الثقافة ، وربما ، كان الشعرُ آخرَ ما التفتَ اليه مترجموه . يبدأ ياقوتُ الحديثَ عنه ، بقوله : « هو احدُ قرّاء ابيورد » ويقول عنه : كان إماماً في كل فَن من العلوم ، عارفاً باللغة والنحو ، والنسب والأخبار ، ويدُه باسطةٌ في البلاغة والإنشاء ، وله تصانيفُ في جميع ذلك . وقال : « وله في اللغة مصنّفات ما سُبق اليها » وقال : وشعرُه سائرٌ مشهور . وكان راويةً للحديث ؛ نَقلَ عنه الحُفّاظ الأثبات الثِقات . ويقول في علمه : « أوحدُ عصره ، وفريدُ دهره في معرفةِ اللغة ، والأنساب ، وغير ذلك » ويقول : وكأنه يَضيق بتعداد ما للأبيوردي مما يتصل بالعلم والثقافة ؛ يقول : واليقُ ما وُصِفَ به بيتُ ابي العلاء المعرّي :

وإني وإنْ كنت الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وذكر له ياقوت ثلاثة عشر كتاباً (٣٤) ، واوصلها غيرُه الى ثمانية عشر . ونأسف أن نقول : إن كتبَه هذه ضاعت ، ولم تصلنا الا اسماؤها ، باستثناء كتابين هما : المختلف والمؤتلف . وزادُ الرفاق .

وهكذا نرى الأبيورديَّ يتحدَّث عنه الأقدمون : قارئاً ، عالماً ، باللغة والأنساب . وفي كتاب مختصر التأريخ لابن الكازروني ؛ من رجال القرن السابع الهجري (٣٥) . يتحدَّث الكاتب عن الخليفتين العباسيين : المقتدى بأمر الله ، والمستظهر بالله . وهما اللذان عاصرهما ومدحهما الأبيوردي ، فيختم حديثه عن الأول بقوله (٣٦) : « وشاعراه : ابن الهبّارية وابن

(٣٤) تنظر اسماء هذه الكتب في مقدمة ديوان الابيوردى ؛ ١٧/١ وقد تفضل محقق الديوان فكتب له مقدمة وجيزة ، من ص ٩ ــ ٢١ ، وهى على ايجازها مما لا يستغنى عن الاطلاع عليها لدراسة الابيوردى .

(٣٥) نشره المرحوم الاستاذ الدكتور مصطفى جواد .

(٣٦) انظر ص ٢١٤ وما بعدها .

صُرَّدر » ويختم حديثه عن الثاني ، بقوله : « وشعراؤه : ابنُ افلح وابنُ النقاش ، وزيدان » ولا تراه يشير الى الأبيوردي مع هذا ، ولا مع هذا .

وعلى هذا ، فلوقلنا : إن اقلَّ بضاعة الأبيوردي عندهم هي الشعر لما بعدنا .

وقد نعلّل اغفالهم في الإشارة اليه بين الشعراء ، مع ان ياقوت قال : وشعره سائر مشهور ، بأن الشعراء كانوا يتخذون الشعر مهنةً او حرفةً يتكسّبون بها ، بمدحهم لرجال الدولة وعليةِ القوم . وهم ينشئون هذا المديح ، ويتقاضون عليه الأجر ، الذي يكون وسيلة عيشهم ، والأبيوردي لم يكن كذلك . فنحن لا نراه يشير في ديوانه الذي جمعه بنفسه ، ولا نرى مؤرخيه يُشيرون الى انه اعطي على القصيدة الفلانية كذا من المال مثلاً ، او كذا من الضِّياع او الخِلَع ... كما نرى هذا عند الكثير من الشعراء .

**شعره :**

يقع ديوان الأبيوردي الذي وصلنا ، وكان كتبه بنفسه ، في ستة الاف بيت ، في قسمين ! سمّى احدَهما : « العراقيات » وهو يحتوي على خمسة آلاف بيت ، وسمّى الثاني : « النجديات » وهو يحتوي على الف بيت .

وقسمُ « العراقيات » يشتمل على حياة الأبيوردي ؛ فيه مدائحهُ للخلفاء والأمراءِ والوزراءِ والسلاطين ، وللأصدقاءِ من رجال العرب وغيرهِم . « اما النجديات » فكان له حنين الى نجد والحجاز ، وما يتعلق بهما من النساء ، والبلدان والنبات والرياح ... وكلّ شيء فيهما . فيه الغزلُ الذي يُشبه غزل الشريف الرضيّ في حجازياته ، وفيه ذكرياتٌ وحنينٌ لما في الحجاز ونجد يشبه حنينَ الشعراء الصوفيَّة ،في شوقهم الى الحجاز ، والى اماكنَ خاصةٍ فيه .

ومع أنه قال عن عراقياته انها : « تهيّأ نظمُها بأقطار الجيل والعراق » فإنه لـم يشر الى مكانِ نظم نجدياته . قال – بعـد حديثه عن العراقيات – : « واما ما سمح به الخاطر حين ولّتني الأربعون اذنابها ، او بَدَرَ به إذا متحت الخمسة الأعقدَ ، واظلّتني واضحةُ القتيرِ ، وعلتني ابّهةُ الكبير (٣٧) ..» فتراه يبين انه نظمها بعد أن جاوز الأربعَينَ او جاوزَ الخمسين . وقال : « (٣٨) إن صاحبيَّ ابا حَنَشٍ هُذَيماً العُليميّ ، من كلبِ بنِ وبرة ، وابا المغوارِ سعداً المضريَّ ؛ من كنانة بنِ خزيمة ، كانا يرتاحان للنسيب الرقيق .... فسألاني – ان أنظِمَ في ذلك ما أنتهجُ به هذه المسالك ... ولم اجدْ بُداً من تحقيق آمالهمـا .. وهـذه الفُ بيتٍ في النسـيب وسـَمْناها « بالنجديات . وهما اوّل من نشرها من الرواة ... »

ومع انه قال عن نجدياته هذه إنه نَظَمها بعد أن جاوز الأربعين ، فإننا نرى فيها حرارةَ الشبابِ وقوةَ العاطفة ، ونراها مما ينظِمُه الشعراءُ قبلَ أن يكونوا في هذه السن من العُمر التي اشار اليها ، ينظِمونها حين تكون عاطفةُ الحب والعشق حادّة قويّة .. ونقول : لعلّه جمَع نجديّاته هذه استجابةً لصديقيه اللذين قال إنهما اولُ من اذاعها ؛ ونحن نذهب الى هذا ؛ لأننا نرى الأبيوردي قد تعلّق بنجد في اشعاره التي سمّاها بالعراقيات ، والتي كانت اسبقَ من النجديات في نظمها كما قال . إننا نراه يستهلُ غزله بالمديح في الحديث عن نجدٍ وعن اهله ، وعن ذكرياته وشوقه ، ونرى هذا يكون في الكثير مما دوّنه في « العراقيات » . أتراه يجعلُ حديثه في مقدّمة قصائدِه عن نجدٍ وعن حبّه لأهلها ، ليستثيرَ به عواطفَه ، وليكون هذا معيناً له على نظمِ الشعر والتجويد فيه ؟ وإلاّ ما شأنُ نجدٍ ونَعمانَ ، وحَضَن ، في الحديث عن استخلاص ضيعة مغصوبة

(٣٧) الديوان ؛ ٩٦/١ .
(٣٨) الديوان ؛ ص ١٧٠/٢ وما بعدها .

في جاورس بخراسان ، بقصيدة يقولها للوزير نظام الملك ؟! إننا نذهب الى أنه عاش بنجد واحبّها واحب اهلها ، وسنتحدّث هذا فيما يأتي من الصفحات إن شاء الله .

وكما قال عن « نجدياته » إنه جمعها استجابةً لصاحبيه ، فإنه كذلك قال عن عراقياته : « ثم إنّ بعضَ الطارئين من بلادِ المغربِ ، أنشدني :

وفتيان صِدقٍ يصـــدُرون عـــن الوغى
وايدي المنايـــا داميـاتُ الأَظـــافـــر
وحاجتُهم احـــدى اثنتين مـــن العُلا
صدورُ العَوالي أو فروعُ المنابـــر

وسألني عن قائلهما ، فأعلمتُه أنهما لي من قصيدةٍ يكثر عددُ ابياتِها ، وهي موجودةٌ عند رواتها ، فكلّفني الإخوانُ أن أَجمعَ شُذانه .. »

وقدّم الأبيوردي لديوانه مقدّمةً حسنةً في الشعر ، وفي قوله ، وهي عندنا قريبةٌ مما قاله استاذُه عبدُالقاهر الجرجاني في حديثه عن الشعر في كتابه دلائل الإعجاز ، ذكر فيها حديثَ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم : إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكما ، وقال : قال الشعبي كان ابو بكر شاعراً وكان عمرُ شاعراً وكان عليٌّ اشعرَ الثلاثة رضي الله عنهم .. وذكر اقوالاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في نقد الشعر ، وذكر قول معاوية لعبدالرحمن بن الحكم في وصّيته بالمديح والهجاء .. ويبدو أن الأبيوردي كان في اوّلِ مقدمته يريد أن ألا بأس عليه—وهو العالم — بنظم الشعر وفي آخرها ، أراد ان يُشيدَ بمعاوية بنِ ابي سفيان ، ويبنَ أنه آخذٌ بوصيته في شعره .

**اسفاره :**

اشار الأبيوردي الى أنه نظَم شعرَه ، الذي سمّاه العراقيات في اقطار

الجيل والعراق . أمّا ما وَسَمَه « بالنجديات » فلم يشر الى أماكن نظمه . وننظر في النجديات هذه ، فنراها كلّها حديثاً عن الحب ، وعن كلّ ما يتعلّق ببلادِ العرب . ونحن نرجّح أن الأبيوردي امضى فترةً من شبابه في بلاد العرب ، ايام كانت عواطفها في ثورتها وتهيؤها للحب والعشق .

والأبيوردي — كما يعرض حياته في ديوانه ، كان جوّابة آفاق ، كثير التنقّل من بلد الى بلد ، ومن اقليم الى اقليم ، يقول عن نفسه في قصيدة يكتبها لبعض بني جمح في الحجاز (٣٩) :

أما وحبّيكِ هـذا منتهى حَـلَـفي
ليظهرَنَّ الـذي اخفيـه من شغفي
وفي الجوانح حبٌّ لايُـغيّـره
صدُّ الملوك وبُـعـد النيّـة القَـذَف
وما الحبيب — وما اعني سواكِ بـه —
ممن يقِـلُّ عليـه في النـوى أسفي

ومنهـا :

ووقفةٍ لم اقلْ فيها على وجـل
للدمع من حـذري عينَ الرقيب قِفِ
والعامريـة تسقي الوردَ مُجهشةً
بنرجس من سِـجال الدمع مغترِف
تقول : حتّام لاتَـلوي على وطن
وكم تعذّب جسماً بادي التَّرف
وكم تَشيم بروقاً غيرَ صادقـة
والآلُ ليس بمـا يُروي صداكَ يفي

(٣٩) الديوان ؛ ٦٦٤/١ .

فاستبق نفسك لايودِ السفار بهـا
فهي الحُشاشة من مجد ومن شرف

ويقول : وكأنه يردّ عليها :

يا اختَ سعدٍ ، وسعدٌ خيرُ من جذبت
الى العلا ضَبعَـه الأَشياخُ من حَذَف
كُفّي وَغاكِ فما عـودي بمُهتصرٍ
وإن أرابك ما تَلْقين من عَجَفي
وإن تغرّبت لـم افزع الى وَكِـلٍ
ولم يكن من صَرى الأمواه مُرتَشَفي

ويقول في اسفاره التي انهكت إبله لطولها ، ولكثْرتها : (٤٠)

خليـليَّ مَـسَّ المطـايا لَـغَـبْ
وألـوى بأشيـاحهنَّ الـدأبْ
وإني وإن انكرتني البـلا
دُ وشيبَ رضى اهلِهـا بالغَضَبْ
لكالضَّيغـم الـوردِ كاد الهـوا
نُ يـدِبُّ الى غابـه فاغتربْ

ويقول راداً على من عَيَّره غربته بأرضهم ، بأنه سيظلُّ دائباً على الترحال مادام عليه رداءُ شبابِـه القشيبُ ، وهمتهُ التي لاترضى بالبقاء على الهوان ، يقول (٤١) :

نأى عامِرٌ ، لاقـرَّب الله دارَه
وآواه رَبـعٌ بالغُميْرِ جَديب

(٤٠) الديوان ؛ ٢/٥ .
(٤١) الديوان ؛ ٢/٨ .

يُعيّرني أني غريب بأرضه
أجَلْ انا في هذا الأنام غريب
سأطلب عزَّ الدهر مادام ضافياً
عليَّ رداءُ للشباب قشيب
ولي همة تأبى مقامي على الأذى
ضجيعَ الهَوينى ما أقام عسيب

ويقول ، وكأنه يهدّد اعداءه اللؤماء ، الذين لايعلمون له إقامة في مكان ، ولا يدرون من ايّ مكان سيصولُ عليهم (٤٢) .

انا مَن عرفتِ ، وبعد يومهم غدٌ
وعليَّ بِزَّةُ أجدلٍ غِطريف
لايعلم اللؤماء اين معرَّسي
وبأي وادٍ مَرْبَعي ومَصيفي

ويعاتبه عمرو صاحبه على السير والسُرى ، فيردّ عليه ، بأنه انما يروم المعالي بتطوافه ، ويفخر بأنه حَسنُ الهداية في السير ، وانه لايحتاج لضوء النهار ليجد طريقَه في السير ، ولايحتاج الى النجم ليهتدي به في السُرى ، يقول (٤٣) :

وعاتبني عمرو على السير والسُرى
ولم يدر أني للمعالي اطوِّف
وما الصقر يستذكي الطَوى لحَظَاته
بأصدق منيّ نظرةً حين يخطِفُ
واهزأ بالأنوار والصبحُ طالعُ
ولا أهتدي بالنجم والليل مُسدِفُ

(٤٢) الديوان ؛ ١/٦٥١ .
(٤٣) الديوان ؛ ١/٤٣٤ .

وقد تحزبُه الغربة في اسفاره فيتشوّق الى بلده كُوفَن ، ويدعو لها ، على نحو ما يدعو العرب لأوطانهم ، بالسُقيا ، يقول (٤٤)

سقى الله رملي كُوفَنٍ صيِّبَ الحَيا
ولا برحا مُستَنَّ راع ورائد

ولي أدمعٌ إن أمسكَ المزنُ درَّه
كفلن بصوبِ البارقات الرواعد

فقد أَوْطنتهَا من أُمية عصبةٌ
غُذوا بالمعالي في حجور المحامد

ويقول : (٤٥)

سقياً لكُوفَن من ارضٍ اذا ذُكرتْ
هاجتْ على عُدواء الدار أشواقا

يطيب عرقُ الثرى منها بكلّ فتىً
من أُسرتي طاب أَعراقاً وأَخلاقا

وقد يتشوق الى امه ، ويتذكر قلقها عليه ، وسؤالها عنه في غربته بعد ان عاد المسافرون من العراق ، ولم يعد معهم الى بلده ، يقول (٤٦)

ومُشبلةٍ شَمطاءَ تبكي من النَّوى
وقد غيَّبت عن غابها أَسَداً وَردا

وتحت حباب الدمع عينٌ رويَّة
من الدمّ ، والأحشاءُ مُضمرةٌ وجدا

(٤٤) الديوان ؛ ٢/١١٠ .
(٤٥) الديوان ؛ ٢/٧٥ .
(٤٦) الديوان ؛ ٢/١١ .

إذا طرق الركبُ العراقيُّ ارضَهـا
بحيث تُظِـلُّ السْمرُ مُقرَبَـةً جُردا
ويحمـي ذِمارَ الجـار كلُ ابنِ حُـرَّةٍ
يكاد من الإكرام يوطِئُـه خـدا
تولتْ بقلب يسـتطير شـرارُه
إذا قدحتْ ايدي الهموم به زَنْدا
وقالت نساءُ الحيّ : أين ابن أُختنا
الا خبِّرونا عنـه ، حُييتمُ وفدا
رعاهُ ضمانُ الله ، هـل في بلادكم
اخو كرمٍ يرعى لذي حَسَبٍ عهدا
فإن الذي خلَّفتمـوه بأرضـكم
فتىً ، مَن رأى آباءه ذكر المجدا

وفي ديوانه كثير من الابيات التي يشير فيها الى اسفاره ، ولا سيما ما يتعلق منها بنجد والحجاز . وعجب عندنا الايشير مترجمو حياتِه الى شيٍ ، من اسفاره فيما اطلعنا عليه من مراجع لدراسته .

**الابيوردى في بغـداد :**

قال الأبيوردي . في مقدمة ديوانه « العراقيات » في حديثه عن الشعر : « وقد كنت اعبث به في عُنفوان الصِّبا والذرع خليٌ والبال (٤٧) رخيّ ، وعندي عُفافة ثروةٍ اسأرتها الأيام (٤٨) ، وأورثنيها الآباء والأعمام ، فما حداني الطمع على تقريظ أحد ولا دعاني الى امتراء (٤٩) النُعمى من يد »

(٤٧) خالى الذرع : قلبه خال من الحزن .
(٤٨) العفافة : بقية اللبن في الضرع ، وهى هنا بقية المال . اسأرتها : ابقتها .
(٤٩) امتراء النعمى : استدرارها .

وقال : « ولكن الخلفاء رعوا فيَّ حرمةَ النسب ، وتوفَّر الوزراء على ايجاب حقي ، محاماة على ذِمام الأدب ولم اعتضد بهم إلا في استخلاص ضيعةٍ مغصوبة ، ولا قرعتُ ابوابَهم لاستفادة عارفة (٥٠) مطلوبة ، فأزرتهم مِدحاً مستنيرة ، واهديت اليهم كلماً حبيرة (٥١) ، ولم اسألهم نوالاً ، ولا رزأتُهم مالاً . . . » ويقول : « قال معاويةُ لعبد الرحمن بن الحكم : المِدَحُ طُعمة الوَقاح . . . والهجاء يستيثر عليك اللئيم ، وقد لهجتَ بالشعر فانشرْبه مناقبَ قومِك ، وإن اجئتَ الى المدح فقلّه ، كما قال الكنديّ(*) .

وحططتُ رحلي في بني ثُعَلٍ
ان الكرام للكريم محلُّ »

★ ★ ★

ونرى من مقدمته هذه أن اباءه خلَّفوا له مايكفيه من ان يحتاج الى احد ، وأنه إنما قال الشعرَ ؛ لأنه كلف به ، وأنَّه لم يتخذه حرفةً يكتسب العيش بها ، شأن غيره من الشعراء ، وانه أخذ بتوصية معاوية بن ابي سفيان في شعره ، فلم يتخذ المديح طعمة ، وانما سار به سير الكنديّ امرئ القيس ابن حُجرْ ، ولم يعمد الى هجاء يستيثر به اللئيم عليه ، وأنه اتخذ الشعر وسيلة لنشر مناقب قومه ، يقول : (٥٢)

ولم أَنظِم الشعرَ عُجْباً بـه
ولم امـتدح احداً عـن أرَبْ
ولا هـزّني طمعٌ للقريـ
ـض ولكنـه تَرجمانُ الأدبْ

(٥٠) العارفة : العطية .
(٥١) من حبّر الكلام : زيّنه . الكندىّ : يعنى امرا القيس .
(٥٢) الديوان ؛ ٦/٢ .

وللفخر أُعْنى به لا الغنى
فعن كِسرْ بيتيَ جِيبَ (٥٣) العربُ

وعندنا ، أنِ أظهرَ ما في حديث الأبيوردي في شعره ، هو مديحه لنفسه ولقومه . إنه لا يغفَل عن هذا في كلّ ما يقوله من شعره ، وفي ايّة مناسبة يقوله فيها . بل نراه في مقدّمته هذه وضع اسمَ معاوية بن ابي سفيان وبيّن أنه اخذ بوصيّته ، ولعلّ هذا كان من باب الإطراء لمعاوية لصلته به .

لقد مدح الأبيوردي الخلفاءَ والوزراءَ والسلاطينَ واكابرَ الناس . ومن الحقّ ان نقول : إننا لانراه يَسِفّ في مديحه ، ولا نراه يُشير ، كما لا نرى مؤرخيه يشيرون الى جريه وراءَ أُعطيةٍ ، ولعلّه اخذ بقول معاوية لعبدالرحمن بن الحكم في هذا .

اما الهجاء . فإنه عندنا — على قلّته — في ديوانه ، وفي ثنايا شعره ، فإنه من اوجع الهجاء . ولكنه هجاء مهذّبٌ ايضاً ، انظره يستنجد بمؤيد الملك بن نظام الملك الوزير على الإنتصار من الوزير الذي اساءَ اليه بالعراق ، يقول من قصيدة طويلة (٥٤) :

وما أنسَ لا أنس العراقَ وربّه
يخادعه اشياعُه عن أناتِه
ويُغرونَه بي ، والإباءُ سجيّتي
إذا خوّفوني ضَلّةً سَطَواته

(٥٣) عن كسر بيتى جيب العرب ؛ يريد انهم اصل العرب . قال ابو بكر رضى الله عنه : انما جيبَ العرب عنا ، كما جيبت الرحى عن قطبها .
(٥٤) الديوان ؛ ٦٦١/١ .

ولي همّـــة تهفـــو الى كلّ سؤددٍ
تفـــرّع آبائي ذُرا هضبـــاتِـــه
وتبغي لديك الإنتصـــارَ مـــن امرئٍ
اذا عُدّ مجدٌ كان في أُخريـــاتـــــه
وآباؤه مَن تعرفون مـــن الورى
ولولا التُّقى عرّفتكـــم امّهاتِـــــه

نقول : أرأيتَ الى انه لا ينسى فخره بابائه ، حتى في حالته هذه ، التي يستنجد فيها ! ؟ وتراه في بيتين اثنين بلغ في هجائه الموجع مالا يستطيعه غيره في ابيات كثيرة .

نقول : كان الأبيوردى شاعراً ، مقتدراً متمكناً في المديح وفي الهجاء . ويبدو أنمُقامَه في اشتغاله بالعلم ، قد قَلقَ به ، وأنّ همته حفزته أنْ يلتمسَ امراً في الدولة ، ولاسيّما وقد رآها على تلك الحالة من الاضطراب والتفكك التي أشرنا اليها في حديثنا عن عصره يقول : (٥٥)

تقول ابنةُ السَّعديِّ وهي تلومنـــي
أما لك عـــن دار الهـــوان رحيلُ ؟
فإن عَنـــاءَ المستنيم الى الأذى
بحيث يَـــذِلُ الأكرمـــون ، طويل
وما في الورى إلاّ لكَ البدرُ والدٌ
ولا لســـواكَ النّيـــراتُ قبيل (٥٦)
وعندك محبوكُ السَّراةِ مُطهَّمٌ
وفي الكفِّ مطـــرورُ الشَّباة صقيـــل

(٥٥) الديوان ؛ ١٠٣/٢ .
(٥٦) محبوك السراة : قوى الظهر ؛ يريد حصانه . ومطرور : محدّد .

فثبْ وثبةً فيها المنايا أو المنى
فكلُّ محبٍّ للحياة ذليلُ
وإن لم تُطقْها فاعتصمْ بابن حرّةٍ
لهمَّته فوقَ السِّماكِ مَقيل

ويبدو ان الأبيوردي اخذ بالرأي الثاني ، وهو الإستعانة بمن يوصله الى بغداد .

لقد سبق له أَن مدحَ نظامَ الملك . ومرَّ بنا انه تشفَّع به في استرداد ضِياعٍ وقرى كان قد ورثها من ابيه . وكان أَنْ اغتصَبها بعضُ النـاس وكان بينه وبين آل اسحاق . وهم اسرة نظام الملك الوزير ، وولديه الوزيرين احمد وعبيدالله ما يرُبي على وشائج القُربى كما يقول (٥٧) في ديوانه .

ويبدو لنا انه وجَد الطريقَ بواسطة هذه الأسرة رحبةً في الوصول الى بغداد . ونراه . وقد تعلَّق بمُثُلِ العرب وقيمهم .ورأى في نفسه الوريث لبني اميَّة . في كلِّ مقامهم الضخم الذي سادوا الدنيا شرقَها وغربَها فيه ، ولعلَّه كان يطمع بوزارةٍ او بأكثر من وزارة حين جاء الى بغداد . ولم لا ، لقد كان قارئاً . عالماً . نسَّابةً . اديباً ، كاتباً ، شاعراً . ولقد وصل الى الوزارة . وفي ايام عزّ الخلافة واوج سلطانها من هم دونَه في نسبه وفي علمه ، وفي شاعريته . كان وزراء الخليفة المأمون كتّاباً وشعراء ، وكان ابنُ الزّيات . وقد وزر للخلفاء العباسيين الثلاثة : المعتصم والواثق والمتوكل . كاتباً شاعراً ،والأبيوردي يفضُلُه في علمه وفي شعره ، ويزيد عليه بإن يفضُلَه في نسبه ايضاً . نقول : جاء بغداد . وفي وهمه ان يكون شيئاً كبيراً

(٥٧) الديوان ؛ ٥٩٨/١ .
(٥٨) الديوان ؛ ٤٤٣/١ .

في الدولة – ومدحَ الخليفةَ الإمامَ المقتدي بأمرالله (٥٨) . فطلب ذلك في مديحه ، قال :

وعاذلةٍ نَهنَهتُ من غُلَوائها
وكنت ابيّاً لا اطيع المفنّدا (٥٩)

أأسحبُ ذيلي في الهوان وأسرتي
تجرُّ الى العِزّ الدِّلاصَ المسرَّدا (٦٠)

ولي من امير المؤمنين إيالةٌ
ستُرغِمُ أعداءً وتُكمِدُ حُسَّدا

هو الغاية القُصوى إذا اعتلقَتْ بها
مآرب طلاّب العُلا بلغوا المدى

والقصيدة طويلة ختمها بقوله :

ورثتَ عُبيد الله عمَّك جودَه
وأشبهتَ عبَدالله جدَّك سؤددا (٦١)

ويبدو ان الأبيوردي لم يحصل على شيء مما تمنّاه من الإمام المقتدي، هذا مع انه مدحه بقصائد عدّة . وتُوفي الخليفة المقتدي سنة ٤٨٧ هـ وولي الخلافةَ بعده ابنُه المستظهر ، وفي ديوان الأبيوردي عدّةُ قصائد في مديحه ايضاً ، ومات الأبيوردي مسموماً بإصبهان سنة ٥٠٧ ، والمستظهرُ ما يزال خليفةً ببغداد . وهكذا ترى ان الأبيوردي قضى سنين كثيرة قد تصل الى نحو العشرين يمدح الخليفتين ولم يحصل على ما أمّل . وتراه حين يمدحُ الخليفة لا يَغْفلُ عن إطراء الوزير ، يمدح الخليفة بقصيدة طويلة فلاينسى ان يختمَها بقوله :

(٥٩) غلا في الامر : جاوز الحدّ . المفنّد : المكذّب او المضعّف .
(٦٠) الدلاص : الدرع اللينة البراقة . المسرّد : المنسوج .
(٦١) في الهامش : كان للعباس ابناء منهم عبيدالله ، وكان مشهوراً بالجود والسخاء وهو عمّ الخليفة الممدوح ، لأنه كان من اولاد عبدالله بن عباس .

ونضا وزيرك دونَ مُلكك عزمةً
تكفيه نهضةَ فيلقٍ شهباء (٦٢)
وتردُّ من قَلِقتْ به اضغانُه
حيَّ المخافةِ ميِّتَ الأعضاء
وتصيبُ شاكلةَ الرميّ إذا بدَت
ريَبٌ تُهيبُ بمقلةٍ شوْساء (٦٣)
يسعى ويدأب في رضاك وإن غَلتْ
مُهَجُ النفوس عليه بالشحناء

الى ان يقول ، ويختم مديحه للخليفة في قوله :

وإصابةُ الخلفاء فيما حاولوا
مقرونةٌ بكفاية الوزراء
لازلتما متوشّحيْن بدولةٍ
مُرخىً ذوائبُها على النّعْماء

ويظلُّ في هذا ، يمدح الخليفةَ ، ولا ينسى الوزيرَ ، ولا ينال شيئاً . ويتجه لمدح الوزراء . وفي ديوانه : « وقال يمدحُ بعضَ وزراء العصر ، بقصيدة طويلة ، جاء فيها (٦٤) :

وها انا ارجو من زمانك رتبةً
لها غاربٌ في المجد لم يُتَسنَّم

وما الذي عندَ الأبيوردي في هذه الرتبة ! ؟ يقول :

---

(٦٢) شهباء : لشهبة الحديد ، والمراد بالفيلق : الكتيبة .
(٦٣) اصاب مشاكلة الرمى : اى اصاب المقتل . والشاكلة : الخاصرة . الشوس : النظر بمؤخر العين .
(٦٤) الديوان ؛ ١/٢٣٨ .

وعندي ثناءٌ – وهـو أرجى وسيلةٍ
اليكَ – كتفصيـل الجُمـان المنُظَّم

ويزيد الأبيوردي في إغراء الوزير : بأنه ليس كغيره من الشعراء في مديحه ، يقول ·

وكم مـن لسانٍ ينظِم الشعرَ فلَّه
شبا كَلِمي ، والصارُم العَضْب في فمي

ثم يستعطف ، فيقول :

وقـد مرَّ عصرٌ لم افزْ فيه بالمنى
فمالِيَ إلا زفرةُ المتنـدِّم
وليس لآمالي سواكَ فإنهـا
تُهيب بأقـوام عـن المجد نُوَّم

ويظل الأبيوردي ، يمدح الخليفة ويمدح الوزير ، ولا ينال ما أمَّل من رتبة . ومع اننا لا نجد في ديوانه أهاجيَ يذكر فيها اسماء الوزراء ، فإننا نذهب الى انه ربما فعل هذا ، ولكنه لم يضعه في ديوانه الذي كتبه . وفي ديوانه (٦٥) : « وقال في صديق له من بني شيبان ، وهو يعرّض ببعض الوزراء » والقصيدة طويلةٌ في مدح الشيباني صديقه ، وفيها :

ألم آتِه والدهـر في غُلـوائـه
قليلَ غِـرارِ النوم منتشـرَ الأمر (٦٦)
فأعذبَ من شِربي بما مدّ من يدي
وآمن من سِربي بما شدَّ من أزري (٦٧)

(٦٥) الديوان ؛ ٣٤٧/١ .
(٦٦) يريد انه جاء صاحبه ، وهو لا ينام ذعراً . وكان امره منتشراً : يريد انه كان فقيراً .
(٦٧) اعذب شِربَه : نزع ما فيه من القذى .

وفي ديوانه : « ولما استوحش من وزير الخليفة ، أنفذ الأميرُ ابو الشدّاد ثروانُ بنُ وُهَيبُ العُقيلي مَن يحملُه الى حِلّته للصداقة التي كانت بينهما ،فقال يشكرة(٦٨) والقصيدة طويلة يستجير فيها بأبي الشداد هذا ، ويستعديه على الوزير .

وظلّ الأبيوردي،وحاله ليست بذاك مع الوزراء ، وفي ديوانه (٦٩) : « وقال يعاتب اميرَ المؤمنين ... ويعرّض بوزيره ، وكان يقصده بالأذيّة ، ويُصغي الى الساعين به » والقصيدة طويلةُ فيها :

سعى بي اليه لا هدى الله سعيَه
ولو نال عندي ما ابتغاه لما سعى
ولمّا رأى أني تبيَّنتُ غدرَه
وادركتُ حزمَ الرأي فيه وضيَّعا
أزاد يديه ناجذيْه تندّماً
يبوّنه في باحةِ الموت مصرعا

وفي الديوان ايضاً(٧٠) : « ولما رقى ابنُ جُهير عنه الى امير المؤمنين ما افضى الى استجارته بعماد الدين ابي بكرٍ عبيدِالله بنِ الحسن بنِ علي بنِ اسحاق فتقدم بإيوائه وتوفّر على ارعائه ، فقال يمدح المحسنَ ويعرّض بالمسيء »

ويهرب الأبيوردي من بغداد . يقول (٧١) ياقوت : « ولما عادى مؤيدُ الملك وزيرُ الخليفة عميدَ الدولة الزمه ان يهجوَه ، ففعل ، فسعى عميدُ

(٦٨) الديوان ؛ ٤٦٨/١ .
(٦٩) الديوان ؛ ٣٣٣/١ .
(٧٠) الديوان ؛ ٣٧٢/١ .
(٧١) معجم الأدباء ٢٣٤/١٧ .

الدولة الى الخليفة بأنه قد هجاك ، ومدح صاحب مصر ، فأبيحَ دمُه فهرب الى همذان » وبقي بعيداً عن العراق ، ثم صدرت اليه من الديوان العزيز كتب عُوتب فيها على مفارقة بغداد رغبةً في عودته اليها » فأجاب بقصيدة طويلةٍ في نحو الستين بيتاً يمدح فيها الخليفة ، ويذُمُّ الذين سَعوا به ويشير الى ان بعضهم قد مات وبعضهم مايزال . يقول بعد حديثه عن بغداد (٧٢) :

فصددت عنها إذ نبا بي معشري
وبغـــى عليَّ من الأراذل معشـــــر
من كلّ ملتحفٍ بمـــا يصـــم الفتى
يؤذي ويظلـــم أو يخونُ ويغـــدُر
فنفضت منـــه يـــدي مخافةَ كيده
إن الكريـــم على الأذى لا يصبـــر

ويقول :

قابلتُ سيّئ ما اتـــوا بجميلِ ما
آتى ، فـــإني بالمكـــــارم اجـــدر
واباد بعضَهـــم المنـــــونُ وبعضهم
في القِـــدِّ ، وهو بمـا جناه أبصَر

يريد ان بعضهم مقتول ، وبعضهم مَشدودٌ بالقِدِّ ؛ وهو السير ، ويريد انهم مغضوبٌ عليهم او مسجونون .

★ ★ ★

(٧٢) الديوان ؛ ٣٤٦/١ .

وعاد الأبيوردي الى بغداد ، ولسنا ندري كم غاب عنها ، ويبدو لنا انه لم يكن احسنَ حالاً في عودته . إن الذي نراه في ديوانه أنه يشتكي من سوء معاملة كتاب الأمراء الأتراك له ، يقول في قصيدة باكية ، ولكنه لا ينسى فَخْرَه بنفسه ، وآبائه فيها ، يقول : ١/٦٤٣ (٧٣) .

فلا تعذليني يا ابنةَ القوم إنَّني
وإن همَّ دهري بالسَّفاه حليم

أَضُمُّ جفوني دونَ بارقة المنى
وأحْمَدُ مرَّ العيش وهو ذميم

واستفّ ترب الأرض إن عضَّني الطوى
ويُجزىء عن لسٍّ الغمير هيشم

ولا اشتكي الأيام إن اعتداءها
على عبد شمس – يا أميم – قديم

وتقطعُ عن حيي نِزارٍ علائقي
صروفُ الليالي ، والخطوبُ تُضيم

وأَلوي الى الأتراك جيدي فلا الندى
قليلٌ ولا امُّ الوفاء عقيم

وقد دبَّ في كتّابهم نشوةُ الغِنى
وكلُّهم جعدُ اليدين لئيمُ

اذا زارهم خِلٌّ مُقِلٌّ لووا به
مناخِرَ لم يعطِسْ بهنَّ كريم

ثم ماذا سيفعل الأبيوردي ! ؟ يقول :

(٧٣) الديوان ؛ ١/٦٤٣ .

سأرحل عنهم ، والمحيّا بمائه
وعرضيَ من مسٍّ الهوان سليمُ
فإن جهلوا فضلي عليهم فإنني
بتمزيق أعراض اللئام عليم

ويقول ياقوت : إنه تولى خزانة دار الكتب النظامية ، بعد القاضي ابي يوسف يعقوبَ بن سليمانَ الإسفرايني ، المتوفى سنة ٤٩٨ هـ ، وليس لدينا ما يسعف بمعرفة مدة بقائه فيها .

وينظر الأبيوردي الى حاله مع مجده الطارف والتليد ، ونسبه المرفوع على هامة العيُّوق ، كما يقول ، والى سؤدده ، ويرى نفسَه مع هذا ليس له الا الفقر والجوع ، فيقول مفتخراً وهو يتحسر (٧٤) :

مجدٌ على هامة العيّوق مرفوع
راقَ الورى منه مرئيٌ ومسموعُ
وسؤددٌ لم يجبّ الدهر غاربَه
وغيرُه في نديِّ الحيّ مدفوع
وقد وَرثناهما غُرّاً جحاجحة
أَريبُهم في الندى بالحمد مخدوع

ثم يقول :

لكننا في زمان ليت دابرَه
بما يشقّ على الأوغاد مقطوع
وما لهم نسبٌ لكن لهم نشبٌ
وكلُّ لؤم به في الناس مرفوع

(٧٤) الديوان ؛ ٢/٢٤ .

وهل يضُرهم ان ليس عمُّهم
عمرو العُلا هاشم والحال يربوع
وهم شِباع رواءٌ في الغنى ولنا
أحسابُ آلِ ابي سفيانَ والجوع

ويظهر ان الأبيوردي ضاقت به بغداد ، ولم يعد يدري ما يفعل ، فراح يكتب الى بعض بني عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان في الأندلس ، يحرّضه على استعادة دولتهم وخلافتهم في المشرق يمدحه بأنه سرحانُ رَدْهةٍ ، وارقمٌ ناكزٌ في شجاعته ، وانه عربيٌّ لم تحتضنه الإماء ، وكأنه بهذا يعرّض بغيره من الذين احتضنتهم الإماء بأنهم دون العرب ، ويُهيب به ان يعود فيذودَ العِدا عن دولتهم ؛ دولةِ بني امية ، التي نزا عليها خالدٌ الذهلي ، وابنُ وشيكة ، وهو ابو مسلم الخراساني ، وهؤلاء العربُ الذين يُعَدّدُهم ، ويزيد في حماسه في دعوته الى أنَّ هؤلاء العِداة ، ما قعدوا عنه ، اي عن ابن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ، إلا بعد ان يئسوا ، فردّوا سيوفهم الى اغمادها ، وألقوا رماحهم على الأرض ، يقول (٧٥)

أثِرْها ! فمادونَ الصرائم حاجزُ
ولا فوقها واهي العزائم عاجز

هذا هو مطلع القصيدة ، ويرى القارئ ايَّ دعوة فيه الى إثارة الخيل او الإبل ، لأن الصرائم ، وهي منقطع الرمل ليس دونها من حاجز ، ويزيد : ان الذي فوق هذه الخيول ليس بالواهي العزيمة ولا بالعاجز ، ثم انظر الى قوله ، وقد تخيله أثارَها ووصل ، فيقول :

أطلَّ على الأكوار سِرحان ردهة
وارقمُ مما يوطِن القُفُّ ناكز

(٧٥) الديوان ؛ ١/٤٥٧ .

ويتوهمه وصل واطلّ على الأكوار اي اشرف عليها . وسرحانُ الردهة ، اجرأ الذئاب عندهم ، والردهةُ : نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء ، والأرقم اصعب الحيات ؛ يقولون لايعض بفيه ولكن ينكزُ بأنفه ، ولا يكاد يُعرف ذنبُه من أنفه ؛ لدقة رأسه ، فصاحبُه الأندلسيُّ هذا : ذئبُ ردهةٍ ، وارقمٌ ناكزُ ويستمر ابو المظفّر في إغراء صاحبه او امتداحه ، يقول :

فتىً لم تورّكْه الإماء وهجمةٌ
تَضُم قواصيها اليه المفاوز

وبعد ان يبين ان هجمته هذه ستضمّ اليها المفاوزُ قواصيَ ما فيها من الخيل او الإبل ، يقول :

اهبتُ به حيث الهِدان من السُرى
لهامته في غَمرة النوم راكز (٧٦)
فهبَّ كما استتلى القرينةَ شامسٌ
به وجلٌ منَ روُعة السوط حافز
خذي قَصَباتِ السبق منيّ فما لها
من الحيِّ غيرَ ابن المعاويّ حائز

ويقول :

نذود العِدا عن دولةٍ أرعدتْ لها
فرائصُ تستشري عليها الهزاهز
نزا خالدٌ فيهن وابنُ وشيكةٍ
وآلُ كثيرٍ وابن كعبٍ ولاهِز

(٧٦) فهب : انتبه من نومته . والقرينة : الجنيبة . وحافز : دافع اى نبهته وحرّكته فنشط الى السير والسرى ، كما يحرك الفرسَ الجموحَ تابعه وجنيبه .

فردَّ الى الغِمـدِ السُريجيَّ مُنتضٍ
والقى على الأرض الرديني راكز

ويختمها بقوله :

وكلُّ امرئٍ ينوي خلافَـكَ خائبٌ
ومَن هو يسعى في وِفاقك فائزُ

ويظل الأبيوردي ينفخ في الرماد ، ولا مجيب ، وليس له من عمل في بغداد . ويعرَض عليه بعض الوزراء الكتابة (٧٧) فيرفض . وكيف يرضى لنفسه وقد تقدَّمت به السن . وهو على مانراه من فخر بنفسه ونسبه ، ان يتوَّجَ مجدَه المرفوعَ على هامة العُيَـوق ، بأن يكون من كتّـاب الوزير ، يقول :

خليليَّ إن العمر ودَّعتُ شرخَـه
وما في مشيبي من تَلافٍ لفـارِط
ألم تعلما أني أَنستُ بعُـطلـةٍ
مخـافـةَ ان اُبلى بخـدمـة ساقـط
فلا تدعواني للكتابـة إنهـا
طَـمـاعـةُ راجٍ في مَخيلةِ قانط
ينافسني فيها رعاعٌ تهـادنـوا
على دَخَـن من بين راض وساخط
لئن قـدَّمتهم عُـصبةٌ خانَـها النُـهى
فهل ساقطٌ لم يخط يومـاً بلاقط
ولكنني أَغضيتُ جَفنـي على القَـذى
ولم أَرضَ ادراك العُـلى بالوسائط .

(٧٧) الديوان ؛ ٢/٢٠٦

وكتب الأبيوردي يلتمس داراً من الخليفة المستظهر بالله يسكنها ، وقد مدحه بخير صفات الخلفاء مبتدياً بالخلفاء الراشدين ثم بني العبّاس ، الى عهد ابيه المقتدي بأمر الله . قال (٧٨) : « فلما عُرضت عليه هذه القصيدة وقّع له بقطعة ارض من الأَجمة ؛ نائيةٍ عن العمران ، وهي قريبة من الثريا ، فوهبها لبعض الصوفيّة من اهل بلده » .

هذه حالة الأبيوردي مع الخليفة ، ويبدو أنّ حالَه مع الوزير ، الذي سمّاه : ضياء الملّة ، لم تكن بأحسن منها . فالأبيوردي يعاتبه ، ويبيّن له انه مزمع على الرحيل ، وأن الوزير اسمِعَ عنه مالم يقلْه بقصيدة تزيد على الأربعين من الأبيات ، وهو ينتهز مناسبة العيد لإخبار الوزير وعتابه ، يقول فيها (٧٩) :

اتى العيدُ طلق المجتلى فتلقّــه
بوجهٍ يروق الناظرَ المتأمــلا
وضحٍّ بمن يطوي على الحقد صدرَه
فإنك مَهْما شئتَ وّلاك مقتلا
وأرعِ عتاباً تحته الودُّ كامنٌ
مَسامعَ يملأنَ الثناء المنخّلا
ارى مللاً حيث التفتُ يُهيبُ بي
وما كنتُ أخشى أن افارقَ عن قلى
أَمِن كَذِب الواشي وتكثيرِ حاسدٍ
اذا لم يجد قولاً صحيحاً تقوّلا ! ؟

(٧٨) الديوان ؛ ٦٧٥/١ .
(٧٩) الديوان ؛ ٥٥٣/١ .

رميتَ بنا مَرمى الغريبة جُنّبت
على غُـلَّـةٍ تُـدْمي الجوانحَ مَنْـهلا
واطمعتَ في أعراضنا كلَّ كاشحٍ
يجرِّعـه الغيظُ السِّمامَ المثمَّلا

ويقول ، وكأنه يهدّد :

وراءَك إني لستُ أَغرِسُ نخلـةً
لأجنيَ منهـا حينٌ تثمرً حنظـلا
وهـا انا ازمعتُ الفراقَ ، وفي غدٍ
نَميلُ بصدر الارحبيّ الى الفلا

ويرتحل الأبيوردي من بغداد متجهـاً الى بلاد العجم

★ ★ ★

## العروبة في شعر الابيوردى

### ١ ـ حبّه لبلاد العرب

ويبدو ان الأبيوردي زار الحجازَ ، وحجَّ اكثرَ من مرةٍ ، ومؤرخوه لم يشيروا الى هذا،ولكننا نراه في شعره . إنه يتشوَّق الى اماكنَ في الحجاز ، وفي نجدٍ ، على نحو ما يتشوَّق اليها اهلُ التصوف ؛ يحبونها حباً ممزوجاً بعواطفهم الدينية ، فيسبغون عليها من القدسية ما يجعلهم يرون كل في فيها لايشبه مثيلَه في غيرها من اقطار الدنيا . يكتب الأبيوردي الى بعض امراء العرب ، فتأخذه الذكرياتُ وتهيج الحنينَ في نفسه ، يقول :

معاهدُها والعهد يُنسى ويُذكرُ
على عَذَبات الجزع ، تَخفى وتظهر
واشلاءُ دار بالمحصّب من مِنىً
وقفت بها والأرحبيّةُ تهدِرُ (٨١)
أُسائلُها ، والعين شكرى من البُكا
وهنٌ بخيلاتُ المعالم دُثَّر (٨٢)
واستخبر الأطلال عن ساكني الحمى
فلا الدمعُ يَشفيني ، ولا الربع يخبر
ولي مقلةٌ ما تستريح الى البكا
بحُزوى ، فقد الوى بدمعي مُحَجر

---

(٨٠) الديوان ؛ ١/٥٨١ .
(٨١) الأرحبية تهدر : يريد : ناقته تهدر ؛ وهدر البعير : ردّد صوته في حنجرته .
(٨٢) شكرى : من قولهم شكرت الناقة ؛ غَزر لبنها . دُثَّر : جمع داثر : اى عافيات .

وتراه في ابياته هذه يتشوّق الى اماكن في الحجاز ، في المُحَصَّب ، وهو عند الحَجون ذاهباً الى مِني ، ومِنيً في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار . وحُزوى هذه في اماكن كثيرة في نجدٍ واليمامة ، وقد اكثر الشعراء العربُ القدماء دورانَـها في اشعارهم .

ويتشوق الى اماكنَ في الحجاز كان حبُّـه فيها ؛ يحن الى وادي الغضا ، فيقول : (٨٣)

حننتُ الى وادي الغَـضا . سُقي الغضا
حيا كلُّ غادٍ من سحابٍ ورائـح
اكُرُّ اليه نظـــرةً بعـد نظـرةٍ
بطرْفٍ الى نجدٍ على النأي طامحِ
كأن التوائي من جَـوىً وَصبابـة
تَرَنُّحُ نَشوانٍ من السُـكْـر طافح

ويقول في حنينه الى وادي الغضا (٨٤) ايضاً :

اعائدةٌ تلك الليالي بذي الغضـــا
أَلا . لا ؛ وهل يُثنى من الدهر ما مضى !؟
اذا ذكرتْها النفس باتت كأنَـها
على حدّ سيفٍ بين جنبيَّ يُنتَضى
فحِـنَّ رويداً أيهـا القلبُ واصطبرْ
فلا يدفعُ الأقدارَ سُـخطٌ ولا رِضى

ويقول : (٨٥)

---

(٨٣) الديوان ٢/٢٤٨ .
(٨٤) الديوان ؛ ٢/٢٦٣ .
(٨٥) الديوان ؛ ٢/٢٩٢ .

خليليَّ ! هذا ربع ليلي بذي الغَضا
سَقى الله ليلى والغضا وسقاكما
وقد كنتما لي مُسعِدَيْن على البكا
فما لكما لاتُسعدان أخاكما

ويذكر نعمان الأراك ، وهو وادٍ يُنبت الأراك ، وسُمِّي به لكثرته فيه ، يقع بين مكة والطائف ، يقول (٨٦) :

نزلنا بنَعمان الأراك وللندى
سقيط به ابتلَّت علينا المطارف
فبت اعاني الوجد ، والركب نوَّمٌ
وقد اخذت منا السُرى والتنائف
وقفت به ، واالدمع اكثره دمٌ
كأني من عيني بنَعمانَ راعِفُ

ونراه يثبت في ديوانه اشعاراً ينحو بها نحو ابن ابي ربيعة في غزله ، وفي تعرّضه للنسوة الحاجّات . ولعلَّ مثل هذا يكون من الشعراء يطوفون في الحج في شبابهم . إننا ندري ان الكثير من الشعراء يقولون في الخمر ، وفي العشق ، وهم ليسوا من اهل الخمر ولا من اهل العشق ، وقد يكون الشاعرُ الأبيوردي في بعض أحاديثه من هؤلاء . إن الذين كتبوا عنه شهِدوا لـه بالعفّة والتُقى ، وان كان الرجل منظرانياً من الرجال على حدّ تعبير ياقوت ، وكان الرجل شكلهُ اوهيأتهُ ، مما يستلفت النسوةَ يقول في تعرضه للنسوة الحاجات (٨٧)

(٨٦) الديوان ؛ ٢٠٣/٢ .
(٨٧) الديوان ؛ ٢٢٣/٢ .

ثنت طرفها عنّي نَوارُ وأعرضتْ
وللركب بين المأزمين ضجيج
وما ذاك الا مِن عتاب نبذتُه
اليها على ذُعْرٍ ونحن حجيج
فقالت : معي إن زُرتَ مايوقظ العِدا
وهم كالأسود الغُلْب حين تهِيجُ
فلِلْحَلْي – لاعزَّ الدنانير – رنَّةٌ
وللِمسك – لاعاش الظباء – أريجُ

والمأزِمان تثنية المأزِم . والمأزمان : جبلا مكة ، وموضعٌ بمكة بين المشعر الحرام ، وعَرَفة .

ويقول . وكأنه يشرح قصة حبّه لحاجة (٨٨) :

علاقةٌ بفؤادي أعقبت كَمَدا
لنظرةٍ بمِنىً أرسلتُها عَرَضا
وللحجيج ضجيجٌ في جوانبه
يَقضون ما أوجب الرحمنُ وافترضا
فاستنفض القلبَ رعباً ما جنى نظري
كالصقر ندّاه طَلّ الليل فانتفضا
وقد رمتني غداةَ الخَيْفِ غانيةٌ
بناظرٍ إن رمى لم تخطئ الغَرَضا (٨٩)
لما رأى صاحبي ما بي بكى جَزَعاً
ولم يجد بمنى عن خُلَّتي عِوَضا

(٨٨) الديوان ؛ ١٨١/٢ .
(٨٩) الخيف . بفتح الخاء وسكون الياء : هو المحصّب ؛ وهو بطحاء مكة .

فبتُ اشكو هواها وهو مرتفـقٌ
يشوقـه البرقُ نجديّاً إذا وَمَضا
ولم يُـطـق مايعانيـه فغـادرني
بين النّـقـا والمُصَلّـى عندها ومضى(٩٠)

اما حبّـه لنجد ، ودورانها في شعره ، فإننا لانكاد نعرف شاعراً عربياً تعلّـق بوطنه تعـلقَ الأبيوردي في نجـد ، ومع ان المؤرخين لايشيرون الى زيارتـه ، ولا الى عيشه في بلاد العرب ، فإننا حين نقرأ ديوانـه يخيّـلُ الينا أنـه انتُزِع من بلاد العرب انتزاعاً ، وألقىَ به ، على كُـرهٍ منه ، في خراسان ، حتى لكأنّ كلّ شيءٍ في خراسان لايَزيدُه الا حنيناً وتعلّقاً ببلاد العرب ، وفي نجد خاصة .

وحسبنا منه أنه قسم ديوان شعره قسمين ؛ اختصّ احدَهما بالعراق ، وسمّـاه « العراقيات » واختص الثاني بنجد ، وسمّـاه « النجديات » وديوانه : « العراقيات » فيه مديحه للخلفاء والوزراء وو . . . والحديث عن الناس ، اما النجديات فليس فيه الا الحنين الى نجد ، وهو مقطّعاتٌ فيها الحب والشوق والذكرى والوجـد .

إننا نعلم ان صلة الإنسان بوطنه قد لايحسها ، ولايوليها ما تستحقه مادام فيه ، إنها كالصحة ، لايعرفُ الإنسان مقدارَ قيمتها الاحين يفتقدها وقد سوّى القرآن الكريم هجرة الإنسـان لوطنه بالقتل او الموت . قال تعالى (٩١) : « ولوانا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ، مافعلوه الاقليل منهم . . . . » ونحن لانعجب ان نرى الناس في ايامنا هذه يتحدثون عن مرض يسمّـونه « حب الوطن » ويبيّنون ان الناس قد يحدُث

(٩٠) المصلى : موضع بالعقيق .
(٩١) سورة : النساء الآية : ٦٦ .

لهم فيه ما يحدث للعشاق يشتدّ بهم العشق فيصابون بالجنون . في مَن يحبون وعندنا ان الأبيوردي الشاعر يمثّل هذه الناحية في شوقه الى بلاد العرب .

مرَّ بنا انه نظم نجدياتِه استجابةً لطلبٍ من صاحبه ، وانه نظمها بعد ان جاوز الأربعين او الخمسين من العمر ، وقد ذهبنا الى اننا نراها من اشعار الشباب ؛ لأننا نقرأ فيها حرارةَ العاطفة التي تكون متفتّحةً للحياة وللحب بكلّ انواعه في اطوار الشباب . ونَزيدُ على هذا بأن الأبيوردى ربما نظمها في خراسان حين اشتدَّ شوقه وحنينُه الى نجد والى بلاد العرب ، وانقلب الحنين عنده الى وجد كوجد العشّاق العذريين الغَزِلين ، ولا عجب عندنا ان تطفح اشعارُه بالعاطفة ، لأنَ الذكرى قد تفعل في إهاجة الخيال والعاطفة ما لايفعله الواقع . انظر كيف يتحدَّث عن زيارته لأرض عامرٍ في نجد ، (٩٢) :

لحى الله دهـراً لانزال دريئـةً
لضرّاءَ يرمينا بهـا فيُصـيـبُ
ويُـنـجِـدُ بي طـوراً وطوراً يغور بي
كأني على ما في البـلاد رقيـب
ولمـا أَزارتني النوى ارض عامرٍ
بكى صاحبى والحيُّ منه قَريب
فليمَ – ومعذورٌ على الهمّ والبُكا –
رميٌّ بمـا يُـقـذي العيونَ كثيب
وقالوا : يمانٍ روَّعَـتْـه مَـهـامهٌ
أَبت ان يَرى فيهـا المواردَ ذيب(٩٣)
وثاروا الى نِضوى يُفَـدّون فوقه
أُشيْعِثَ يُـدْعى للندى فَيجيب

(٩٢) الديوان ؛ ٢/٢٠ .
(٩٣) يريد انها مجاهل لا موارد فيها ، وقد خلت من كل حياة .

ومَن بات مرهومَ الرداء بدمعه
فما في دموعي للخطوب نصيب (٩٤)
وقالت سُليمى اذ رأتني لتربها
وراقهما وجْهٌ أغرُّ مَهيبُ
أظن الفتى مِن عبد شمس فإن يكن
ابوه أبا سفيانَ فهو نجيب
ارى وجهه طَلْقاً يُضيء جبينَه
وأحسَبُ أن الصدر منه رحيب
سليه يكلّمنا ، فإن اختيالَه
– على ما به من خَلَّة – لعجيب
فقلت : غلامٌ من اميّة شاحبٌ
بأرضكما نائي المزارْ غريب
وليس ببدع ان يخفِّض جأشَه
على عُدْمه حيث المرَادُ جديب
فمن شِيَم الأيام ان يُسلَب الغنى
حسيبٌ ، وان يُكسى الهوان اديبُ
فقالت : ولم تملك سوابقَ عبْرةٍ :
أَقمْ عندنا ، إن المحلَّ خَصيبُ
وحولك مِن حيّيكَ قيسٍ وخِنْدف
كهولٌ مكاريمُ الضيوف وشيب (٩٥)
وما علمت أني لأمرٍ اروميه
اطوفُ ، وراجي الله ليس يخيبُ

(٩٤) مرهوم الرداء : اى مبلول الرداء : من الرهمة : وهى المطر القليل .
(٩٥) خندف : ليلى امراة الياس بن مضر .

فلا أَلِفتْ نفسي العُلا إن طويتها
على اليأس . ما حنّت روائمُ نيبُ (٩٦)

وقد تحدّث بقريب من هذا ، فيفتخر بنسبه ، وبأنه من قريش ، ويفتخر بفصاحته العُلْوية ، اي المنسوبة الى العالية : وهي الحجاز وما ولاها ، ويبيّن إن إنشاده للشعر بلغة العالية هذه . قد اجتذب الفتيات من عَذارى عُقَيل لرؤيته . فتزاحمن يطلعن اليه من خدورهن . ولا ينسى ان يفتخر بجمال هيئته التي ردّدن حين رأينها انفاساً تُقَدُّ من الحشى ، يقول (٩٧)

وسِرب عَذارى من عُقَيْل سمعنني
وراء بيوتِ الحيّ مرتجزاً اشدو
فسُدّتْ خصاصاتُ الخدور بأعينٍ
حَكَتْ قُضُباً في كلّ قلب لها غِمد(٩٨)
وردّدن أنفاساً تُقَدُّ من الحشى
وتَدْمى فلم يسلم لغانية عِقدُ
وفيهن هندٌ . وهي خوْدٌ غريرةٌ
ومنية نفسي دون أترابها هندُ
فقلن لها : من اين أوضح ذا الفتى
ومنشؤه غورا تهامةَ أو نجد (١٠٠)

(٩٦) الروائم : جمع رائمة ؛ من رئمت الناقة ولدها ، اى عطفت عليه . والنيب : المسنّة من النوق .
(٩٧) الديوان ٤٣/٢ .
(٩٨) نظرن من خدورهن بأعين كالسيوف في حدّتها ولكن القلوب اغمادها . والخصاصات : الفتحات .
(٩٩) تقد من الحشى : اى تنتزع من اقصى منتزعها ، وجعلها دامية لمرورها على صدر جريح .
(١٠٠) من اين أوضح !؟ اى من اين طلع . ووضح الطريق : محجته . وغورا تهامة : لتهامة غوران ؛ غور الساحل وغور تهامة .

ففي لفظة عُلويّة من فصاحة
وقد كاد من أشعاره يقطر المجد

فقالت : غلام من قريش تقاذفت
به تيّةٌ يعيى بها العاجز الوغد

ثم يأخذ في الحديث عن نفسه ، فيحلف حلفة المتعجّب من فراستها فيه ؛ اذ عرفت فيه القرشيَّ تتقاذفهُ الفلواتُ التي لايصبرُ على السير فيها الا مثله ، وأنها عرفت فيه السخاوةَ والكرم ، فيقول :

لعمرُ ابيها ! إنها لخبيرةٌ
بأروع يَمْري دَرَّ نائله الحمد

ثم يشير الى شجاعة قومه ، والى كرمهم :

من القوم تستحلي المنايا نفوسَهم
ويختال تيهاً في ظلالهم الوفد

ومع ان الشارح ضبط لفظة « نفوسهم » بالفتح ، وذهب الى ان المنايا تجدُ نفوسَهم حلوةً فتعشقها او تستحليها ، وذهب فيها الى قول رسول الله صلى عليه وسلم الى قوله لعائشة رضى الله عنها : « إن قومك اسرعُ الناس فناءً ، فقالت : يارسول الله لِمَ ؟ فقال صلّى الله عليه وسلم : لأن المنايا تستحليهم » اي هم كرام . مع هذا فيبدو لنا ان تفسير البيت بالروح العربية هو الأنسب ، لالمسناه من تعلّق الأبيوردي بالشجاعة ، التي يرى فيها الوصولَ الى المجد ، وان نفوس قومِه لاتخاف الموت ولا تنفرُ منه ، بل هي تستحليه ، وكأنه نظر ، وهو العالم الأديب ، الى ما ينسب خطأً الى السموأل :

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً
إذا ما رأته عامرٌ وسلول

يقرّب حُبُّ المـوت آجالَنـا لنـا
وتكـرهـه آجالهُـم فتطـــول

ويقول الأبيوردي ، مفتخراً بصبره على ما ناله مما لايحب :

ومَن لانَ للخطب المـلمّ عريكةً
فإني على ما نابني حَجَرٌ صَلْدُ

ونرى الأبيوردي يحب كلّ شيء في بادية العرب ، وفي حياة العرب فيفضّله على ما عنده في الحاضرة ؛ يفضّل نفحة العرار ورائحته على رائحة العنبر . ويفضّل الضِبابَ واليرابيعَ ، وهي التي يعيرّ الشعوبيون العربَ بأكلها ، يفضلها ، ويرى فيها العيش ، عل ما في الحاضرة . ويفضّل الخيمة ملفّ العزّة على اهلها العرب البدو ، وحولها الإبل تُنحر للضيوف على بيوت الحاضرة ،

ويُعجبني نفحُ العَـرار وربمّـا
شممتُ بعرنيني وقد فاح عَنبر (١٠٢)

فما العيشُ إلاّ الضبُ يحرشه الفتى
وَوِردٌ بمُستن اليرابيع اكدر (١٠٣)

بحيث يُلفّ المرءُ اطنابَ بيتـــه
على العِـزّ والكومُ المراسيلُ تنحر (١٠٤)

---

(١٠١) الديوان ؛ ٥٨٣/١ .

(١٠٢) العرار من نبات البادية المعطر الرائحة . والعنبر : من عطور الحاضرة ، فهو يفضل عطر العرار او رائحته على رائحة العنبر .

(١٠٣) اليرابيع : جمع يربوع ؛ وهى دويبّة كالجرذ الكبير . يحرشه : يصيده .

(١٠٤) الكوم : جمع كوماء ؛ الناقة المرتفعة السنام . المراسيل : جمع مرسال ؛ وهى السهلة العدو .

وقد يجنح به الخيال والشوق ، حتى ليتوهّمُ ويتعجبُ أنْ ليس وحدَه يحن الى العَرار والرند ، وهما من نباتات البوادي العربية الطيبة الرائحة ، بل يتوهّمُ أن الابل تحِنّ اليها ايضاً ، يقول (١٠٥) :

خليليَّ إن الحبَّ ما تعرفانـــه
فلا تُنكرا أن الحنينَ من الوجد
احِنٌّ ، وللأنضاءِ بالغَوْر حنّةٌ
إذا ذكرت أوطانها بربا نجد
وتصبو الى رَنْد الحمى وعراره
ومن أين تدري ما العرار من الرند !؟

ويحبّ العربياتِ في خفرهن ، وفي عيونهنّ الكحيلة الشبيهة بأعين ظباء البادية ، وفي اصواتهن وحديثهنّ الذي له وقع اللؤلؤ المتناثر في السمع والبصر ، ويقول : إنهنّ سمعن به فتزاحمن حتى سَدَدنَ خصاصَ الخدور ، متطلعاتٍ لرؤيته ، يقول (١٠٦)

نظرتُ وللادمِ النوافخ في البُرى
بشرقي نجد ياهُذيمُ حنينُ (١٠٧)
الى خَفِراتٍ من نُمير كأنها
ظباءٌ كحيلاتُ المدامع عينُ (١٠٨)
اذا ما تنازعن الحديثَ اشتفى به
من الوجد متبولُ الفؤاد حزينُ (١٠٩)

---

(١٠٥) الديوان ؛ ١٧٢/٢ .
(١٠٦) الديوان ؛ ٢١٣/٢ .
(١٠٧) الأدمة في الابل : البياض الشديد ، يقال بعير آدم وناقة ادماء . البرى : جمع برة : وهى حلقة من معدن توضع في انف البعير . هذيم : اسم علم لصاحبه .
(١٠٨) عين : جمع عيناء ؛ واسعة العين .
(١٠٩) تبل الحب فلاناً : اسقمه وذهب بعقله .

كأن الذي استُودِعتُـه منـه لـؤلـؤٌ
يلـوح على ايـدي التجـار ثمـيـن
وقـد سمعـت بي فاعترتها بشاشة
ومثلي بهـا عنـد الكرام قميـــن
وسَـدّ خِصاصَ الخِـدر طَرْف ومسمعٌ
ونحرٌ وخـدٌّ واضحٌ وجبيـن (١١٠)

ويقول لصاحبه ، وهويودّع نجداً يرجوه ان يتلبَّث ، وان يتمهلَ ليملأ عينَـه ونفسَـه من ارضها ونباتها . ويحذّره في انه سيندَمُ حينَ يُعرق ، ولا يجد العيش – وإن كان رغداً في العراق – مثلَـه في نجد ، ولا يجد رائحة العَـرار ولا الرنـد هناك ، ولا يرى في ماء الرافدين ، على عذوبته ، إلاّ ما يزيده حنيناً الى أمواه نجد ، وانه سيندم اذ لايجد في ارض الأعاجم سبيلاً الى العودة الى نجـد ، يقول (١١١)

اقول لسعْدٍ . وهو خِـلّي بطانةً
وأيُّ عظيـم لم انبّـهْ لـه سعـدا (١١٢)
اذا نكبت نجداً مطاياك لم اُبَـلْ
بعيشٍ ، وإن صادفتُـه خَضِلا رغدا(١١٣)
تلبّـث قليلاً يرم طرفي بنظـرةٍ
الى ربواتٍ تُنبتُ النَفَل الجَعْدا (١١٤)

---

(١١٠) الخصاص : جمع خصاصة ؛ الثقب الصغير .
(١١١) الديوان ؛ ٢/٢٧٥ .
(١١٢) بطانة : اى خالصاً هنا .
(١١٣) نكبت : جاوزت .
(١١٤) النَفَل : من رياحين البادية . والجعد : الملتف .

فإنك إن أعرقْت والقلب منجدٌ
نَدِمت ، ولم تشمُم عَراراً ولا رندا
ولم ترِد الماءَ الذي زادك النوى
وقد ذقتَ ماءَ الرافدين ، به وجدا
أترمي بنا ارضَ الأعاجم ضَلَّةً
فتزدادَ عمّا تشتهي قربَه بُعدا(١١٥)
وها انا اخشى ، والحوادث جمّةٌ
إذا زرتَها ألاّ ترى بعدها نجدا

ويبيّن ان ذكرياته بنجد ظلت تلازمه ، وظلّ يرى نجداً وطنه مع بعده عنها بعد ان وخطه الشيب ، وان اصحابه صاروا يلومونه على حنينه وتذكّره ، ويعذلونه على هذا . ويبيّن ان نشقة العرار عنده احسن تخفيفاً للوعته من الدمع المنكسب . ومعلوم ان العرب يرون ان الدمع يخفّف الحزن او يغسله ، ومن الحَسَن عندي تعبير الحسين بن الضحاك عن هذا في قوله :

لا وحبِّكِ ، لااصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استراح وإن كان موجعا(١١٦)

نقول : إن الأبيوردي يذهب الى هذا في قوله في ابياته :

بِمنْشَط الشّيح من نجدٍ لنا وطنٌ
لم تَجر ذكراه إلا حنَّ مغترب
اذا رأى الأفقَ بالظلماء مختمراً
امسى وناظره بالدّمع مُنتقب

(١١٥) أترمى بنا ارض الأعاجم : اى اترمى الذهاب بنا الى ارض الأعاجم .
(١١٦) الديوان ؛ ٢/٢٩٠ .

ونشقةٍ من عَرارٍ هزَّ لِمَّتَه
دويحةٌ في سُراها مسَّها لَغَب
تَشفي غليلاً بصدري لايُزحزحهُ
دمعٌ تُهيب به الأشواق منسكب
فقال صحبي غداةَ الشِّعب من حَضَنٍ
والخدُّ يَهمي عليه واكف سَرِبُ (١١٧)
حتامَ يبلي دماً والشيب مبتسمٌ
والعُمر قد اخلقت اثوابُه القُشُب

وظل الأبيوردي يتشوق الى نجد . ويرى أنه ظلَّ محزوناً منذ فارقها ، وهو يمزج ذكراها بأيام الشباب ، ويرى العودة اليها بعيدةً شأن العودة الى الشباب . إنها لاتشترى ، ولا بالمهج ؛ يقول (١١٨) :

مَن لي بنجدٍ وأيام بها سلفت
ما طال عهدٌ بماضيها سوى حجج
لو بيع عصر شباب ينقضى لفتىً
لابتيع عصرُ الصِّبا واللهو بالمُهج
دع ياهُذَيْمُ . . . فمذ فارقتُ جيرتها
ماكنت من بَعدها يوماً بمبتهج
ياسعدُ ! هل لي وهذا الليل يشهد لي
مما اقاسي لدى التسهيد من فرج
يا لائمي كفَّ ! إن الحب اخرس من
يلومه عن فصيحاتٍ من الحجج

(١١٧) حَضَن : جبل بأعلى نجد .
(١١٨) الديوان ؛ ٢/٢٩٥ .

**العرب مثله الأعلى :**

ومع ان الأبيوردي ولد ونشأ في كُوفَن ، وهي بليدةٌ في خراسان بعيدةٌ عن بلاد العرب ، وأنه نشأ وشبّ ورأى الدولةَ الاسلاميَة يُديرُها ويترأسها ويتحكّم فيها غيرُ العرب من الأعاجم ، ويرى العربَ وقد انسحبوا من ميدان السياسة والحكم ، مع هذا فقد ظلَّ العربُ هم المثلُ الأعلى في كل شيء ؛ يراهم وكأنهم خُلقوا من طينة غيرِ طينةِ الناس .

ولعلَّ من العَجب بعد هذا كلّه ، ان تكون صورةُ العرب عنده المحاربين ، تهزهم الإحن فيغضبونَ ويستلون سيوفهم البيضَ اللامعةَ التي لا تصدأ لكثرة استعمالهم لها ، ويدعوهم الصريخ ، فيُسرعون لنَجدته ويهتزونَ طرباً لجمجمة الخيـــل تتهيأ للركض في القتال . إنهم يحمون نجداً وطنَهم ، برماحهم التي تشبه النجوم في اسنّتها اللامعة . وقد لانرى هذه الصورةَ الغريبة واضحةً الاحين نقرنُها بما كان عليه العربُ في ايامه من غلبه الأعاجم لهم ، وتسلّطهم عليهم . وحسب العرب هواناً ان السلطان السلجوقي يطلب من الخليفةِ العباسيّ ان يترك بغداد .. ويستمهله الخليفة شهراً ولايرضى بامهاله ساعة واحـــدة ، ولاينجي الخليفة من هذا إلا موت السلطان السلجوقي ، فيعُدُّ الناس موتَه كرامةً للخليفة العباسي نقول : اذا رأينا هذه حالة الخليفة العربي العباسي ، رأينا صورة العربي الغريبة العجيبة في نفس الأيبوردي ، يقول (١١٩)

مَن الطوالعُ من نجدٍ تُظلّهمُ
سُمرُ القنا ، أنزاراً يدّعون أبا !؟
ارى سيوفَهم بيضاً كوجههم
فما لأعنيهم محمرّةً غَضَبا !؟

(١١٩) الديوان ؛ ٢/٢٢٥ .

أجَلْ ، همُ عامِرٌ هزتهمُ إحَنٌ
واستصحبوا من سليم غِلمةً نُجُبا
اذا الصريخ دعا حلّوا الحُبا كرَماً
وجَمجمَ الخيلُ فاهتزوا لها طرَبا
يحمون نجداً بأرماحٍ مثقّفة
تحكي الأسنّةُ في اطرافها الشُهبا

ويكتب الى صاحبه ثروانِ بنِ وُهَيْب العقيلي ، فيرينا كيف تعلّقت نفسه بالعرب ، وبكل ما هو عربي ؛ يقول (١٢٠) ؛:

لَبيتٌ بأعلى قَلعةٍ في ظلاله
ملاعِبُ خفّاقٍ من الريح سَجْسج
تشدُّ النزّارياتُ اطنابَه العُلا
بأرضٍ يلوذ الطير فيها بعوسج
ويمشين رَهْواً مِشيةً قرشِيةً
تنوء بكثبان النقا المُتدرّجرج
وتُشرِق بالورد الخدودُ نواضراً
اذا ابتسمت عن اقحوان مُفلّج
ونغمةُ راعي الذود يُزجي إفاله
بِدِعْص يُهاديه نَدى الليل أثبج
احبُّ الينا من قُوَيْق وضجعةٍ
على زَهَرٍ يستوقف العين مُبهج

وهكذا تراه يحن الى البيت العربي . او الى الخيمة العربية . في قلعة تخفق في ظلالها الريح . وهي سجسج . وفي الحديث عن الرسول الكريم

(١٢٠) الديوان ؛ ١/٥٩١ .

صلّى الله عليه وسلم ؛ هواء الجنّـة أو ظلّ الجنـة ، سجسج ؛ وواضحٌ أنَ هذا هو المعتدل الذي تشتاقه النفوس ، ولانشك في أنَ الأبيوردي لم يغب عنه هذا ، وهو المحدِّث ، حين كان يتحدَّثُ عن ظلالِ خيمة في بلاد العرب ، قد تعلَّقت بها نفسه . ثم انظر من الذي يشدُّ اطنابَ هـذه الخيمة القريبة الى نفسه وقلبه إنهن النِّزاريات . ولعلَّ لهؤلاء النزاريات في نفس الأبيوردي غير ما لغيرهِن من الخراسانيات او غيرهن من النسوة ، وانظر كيف امتدحَ طول قاماتهن ، وهو ما يمتدحه العرب في نسائهم ! إنهن يشددنَ الأطناب العالية في الخيمـة ! .

ومع ان العوسج من نبات الشوك الذي لايحبه الحضر ، فإن له في نفس الأبيوردي صورة اخرى . إن طيرَ البادية يُحبّـه ويلوذ اليـه . ثم انظر لهذه « المشية القرشيّـة » وقد لاتعجب ان تكون للنزاريات مشية خاصة ، وهي المشية القرشية . التي يَـمشينَـهـا رهواً أي متمهّلات . ان هذه المشية لها في نفسه ايضاً ما ليس لغيرها من صور المشي . إننا نلاحظ هذا في ايامنا ، حين نتغرَّب ، ويتزاحم الناس في الغربة ، نكاد نعـرف العراقي او العربيَّ من مِشيتـه التي يختلف بها عن سائر الناس ، ولا نشك في ان الأبيوردي كان يحس هذا وهو بخراسان ، ويرى ان مشية نسائهم غير مشيـة النزاريات من النسـاء .

ولا ينسى بعد هذا نغمة راعي الإبل ، وهو يسوق إبله . ويترفق بحيرانها ، على الرمل الذي اصابه ندى الليل ، فأصبح وهو رطبٌ ، وهو في حاله هذه احبُّ ما يكون لأهل البادية .

ويختمُ حديثه عن هذه الصور بأنها احب الى نفسه من ضجعة على نهر قوَيْـق ، في حلب ، وسطَ زَهَـرٍ يستوقف العينَ ببهجته . هكذا يرى العرب ، وهكذا تتعلقُ نفسهُ بهم وبصورٍ من حياتهم في باديتهم ، .

ويرى بعد هذا ان قومه بني اميّـة هـم خلاصة العرب الذين انتهت اليهم صفات العرب في كل شيء نبيـل ، وكلّ شيء حسن ، ويرى نفسه بعد ذلك ، هو الوريث لهذه الصفات النبيلة الحسنة كلّـها ، وأنّـه الملومُ حين يتهاون او يفرّط بها ، يقول (١٢١) :

انا ابن الأكرمين أباً وامّـــاً
وهم خيرُ الورى عمـاً وخـالا

ويقول بعض شرّاح شعره : إنه عنى بابائه بني اُميـة ، وعني بأخواله اهل اليمن ؛ لأن بني امية صاهروهم ؛ فهؤلاء وهولاء عنده هم العرب وهم خيار الناس . وبماذا كانوا خيارهم ! ؟ قال :

اشدُّهم اذا اجتلَـدوا قِتـالاً
واوثقُـهـم اذا عَـقـدوا حِـبالا
وإن دُعيتْ نزَالِ مشوا سراعاً
الى الأقران ، وابتـدروا القتـالا

وهم عنده شجعان حين يقاتلون مجتمعين بجيش ، وشجعانٌ حين يقاتلون فرادى ، فإن اشتدت الحرب وتزاحم الأقران ، ولم يجدوا السبيل الى التطاعن ، وتداعوا بالنزول عن الخيل ، كانوا اول النازلين عن خيولهم ، الساعينَ الى اقرانهم ، المبادرين الى المنازلة والمقارعة ، ويراهم — ابداً — يعودون من الحرب ومن المنازلة منتصرين . وخيولُهم تسيلُ حوافرُها بدماء الأعداء ، يقول :

وجرّوا السمر راجفـةً صـدوراً
وقادوا الجُـرد راعِـفَـةً نعـالا

(١٢١) الديوان ؛ ١٤٢/١ .

ويقول ، وكأنه يتحسَّر :

غُنـوا في جاهلَيتّهم لَقـاحاً
ونارُ الحرب تشتعل اشتعالا

يقال : غُنى بالمكان : إذا اقام فيه . واللقاح : الذي لايدين لأحد ولاينقاد ، وهذه حالهم في جاهلّيتهم ؛ كانوا يقيمون في اماكنهم مصرّفين لأمورهم ، وكأنه يقول هذا ؛ لأنه رأى غيرهم في أيامِه يسوسُهم ويصرّفُ امورهم ، ويتحكّم بهم على النحو الذي يريد .

هكذا كانوا في جاهلّيتهم ،

وفي الإسلام ساسوا النـاس حتى
هُـدوا للحق فاجتنبوا الضـلالا
وهم فتحوا البـلاد بباترات
كأن عـلى اغرّتهـا نمِـالا

وقومه ، او آله ، هم اهل الفضل على الناس ؛ لأنهم جنَّبوهم الضلال ، وهَـدَوْهم الى طريق الحق . ويقول : إن العرب انفسَهم يعرفون لقومه هذا ، ولا ينكرونه عليهم ، يقول :

وقد علم القبائل أنّ قـومـي
أعزُّهـم وأكرمُـهـم فَعـالا
واصرحُـهـم اذا انتسبوا اصـولاً
واعظمهُـم إذا وَهبـوا سِجالا

ثم يلتفت الى نفسه ، ويقول :

وها انا منهـم والعرق زاكٍ
اشدُّ لمـن يَكيـدهم القِبالا

والقِبال : هو سير النعل ، والعرب تقول : شدَّ فلانٌ قِبالَه للأمر ؛ يعنون تأهّب ، واستعدّ له ، كما نقول الآن : شدَّ حزامه او تحزَّم للأمر .

ثم يأخذ في حديثه عن بني امية ، اسلافه ، فيقول

نماني من اميَّة كلُّ قَرْمٍ
تردُّ البُزْلَ هَدْرتُه إفالا

ومعروف ان القَرْم : هو البعير المكرّم ، الذي لايُحمَّل ولا يُذلّل ، والبُزْل : جمع البازل . وهو البعير في سنّه الثامنة او التاسعة ، وهي السن التي يكون فيها في عنفوانه وشدّته . وإلافال : صغار الإبل . فهو يريد: أن الذي نماه من اميَّة هو العظيمُ الذي يهدِد يرد الكبار صغاراً ، ويردُّ عظائم الأمور الى صغائرها ايضاً . ويقول بعد هذا عن نفسه وكأنهُ يردّ على من رآه قد تجاوز الحدّ في فخره بآبائه :

فإن أفخر بآبائي فإني
اراهم اشرفَ الثقليـن آلا

ويتحدث عن نفسه :

اشيِّد ما بناه ابي وجدّي
واحمي العِرْض خيفة أن يُذالا

★ ★ ★

ويطغى عليه حبّه للعرب في قديمهم . وما يراهم عليه من استكانة ومذلّة في ايامه . وقد مرَّ بنا(١٢٢) انه كتب الى بعض بني عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان في الأندلس . يغريه بالعودة ليستوليَ على الدولةِ الإسلامية في المشرق . ويُعيدَها الى ما كانت عليه في عهد اسلافهم

(١٢٢) انظر ص ١٧٢ من هذا البحث .

الأمويين ايامَ عزّهم . ويبدو انه لم يجد من يجيب نداءه او دعوته ، فتراه يتوهّم انه هو الأمويّ الذي سيقوم بهذا ؛ يقول السبكي (١٢٣) :

« . . . ثم كان رشح من كلامه نوعُ تشبّث بالخلافة . . . فاضطره الحال الى مفارقة بغداد ، ورَجَعَ الى همذان فأقام بها يدرس ، ويفيد ويصنّف مدة . . . » .

نقول : يبدو أنه صار يعمد الى التهديد في اقواله ، ولعلّ هذا هو الذي اغضب الخليفةَ العباسي عليه ، حتى قالوا : إنه أهدَرَ دمه ، يقول الأبيوردي (١٢٤) :

تأمّلت الورى جيلاً فجيلا
فكان كثيرهم عندي قليلا

الى ان يقول :

ومَن راقته ضجعتُه بدار
يُفلّ المشرفيُّ بها صليلا
فلستُ من الهوان وليس منّي
فألبسَه وادّرعَ الحمُولا

ويقول :

إذا الأمويُّ قرَّبَ أعْوَجِيّاً
وضاجع هُندوانياً صقيلا
فذرْه والمِصاعَ فسوف تؤتى
به ملكاً مهيباً او قتيلا

(١٢٣) مقدمة الديوان ؛ ١٧/١ والطبقات ٦٣/٤ .
(١٢٤) الديوان ؛ ٣٩٨/١ .

ومعروف أن المِصاعَ ، والمصْع : الضرب بالسيف ، والمماصعة : المقاتلة ، وهو يعني بهذا : الملك او الهلك .

★ ★ ★

وطغت على الأبيوردي نظرته الى العرب والعروبة في مثلهم العليا من اباء ، وشمم ، وشجاعة ، وعدل ، وما الى هذا من القيم التي ارادها الدين الإسلامي والتي ارتضاها الناس فآمنوا بالدين الحنيف ، واقروا للعرب بالسيادة ، وعنده ان بني اميّة ارتضى الناسُ سيادَتَهم ، لأنهم سادوا بهذه المثل ، ورأى نفسه وهو من افضلهم ، يقول :

جِدّي معاوية الأغرّ سمت به
جُرثومةٌ من طينها خُلق النبي

وورِثته شرفاً رفعتُ منارَه
فبنو أُميّة يفخرون به وبي

رأى نفسه جديراً بأنْ يعيدَ العربَ الى ما كانوا عليه في ايام اسلافه ، وأن يعيد الدنيا الى ما كانت عليه في ايام اسلافه بني امية ، ونقرأ هذا في اخباره واشعاره حتى ليتوهمه بعض الناس إنه ينقلب الى شيء يشبه الخبل عنده ،

يقول ياقوت : « وحدّث السمعاني عن العجلي ، قال : سمعت الأبيوردي يقول في دعائه : اللهم ملّكني مشارقَ الأرض ومغاربها ، فقلتُ له : ايُّ شيءٍ هذا الدعاء ! فكتب إليّ بهذه الأبيات :

يعيّرني اخو عجل إبائي
على عُدمي وتيهي واختيالي

ويعلم أنني فَرَطٌ لحيٍّ
حموا خِطَطَ المعالي بالعوالي

فلستُ بحاصن إن لم ازرِهـا
على نَـهَـلٍ سنا الأَسل الطِـوال

وإن بلـغ الرجـال مـداي فيما
احـاولـه ، فلستُ من الرجـال

هكذا يرى الأبيوردي نفسه ! إنه لايدعو لنفسه بصحة ولا بثروة وراحة ، ولا بجنّـة في آخرته ، كما يدعـو المسلمون لأنفسهم في دعائهم ، ولا يكتفي بأن يملك مشارق الأرض ولكنه يريد مغاربَها ايضاً شأن بني امية اسلافِـه . ويرى انّ ما يحاولُـه تعجزُ عنه الرجالُ ، أَلم يكن قد كتب لبعض بني امية في الأندلس وما سمعوا له نداءً ، يرى أَنّ مايحاولُه تعجز عنه الرجال ولكنه يرى نفسه لانظير له في الرجال .

وتتغيرّ نظرة الأبيوردي للسلاطين ، وهم الحكّام المصرّفون للأمور ؛ يقول ياقوت ايضاً : « . . . وحدّث السمعاني عن احمد بن سعيد العجلي ، قال : كان السلطان نازلاً على باب همذان ، فرأيتُ الأبيوردي راجعاً من عندهم ، فقلت له : مِن اين !؟ فأنشأ يقول ارتجالاً :

ركبتُ طِـرفي فأذرى دمعَـه أسفاً
عندَ انصرافيَ منهم مضمرَ الباس

وقال : حتامَ تؤذيني ! ؟ فإن سنحت
سوانحٌ لكَ فاركبني الى النـاس

هذا هو الأبيوردي ! يرى السلطان الذي يطلب اليه الخليفة مهلة شهر لمغادرة بغداد ، ويردّ عليه بقوله : ولا ساعة . . . يرى هذا السلطانَ فيبكي حصانهُ اسفاً حين يرى الأبيوردي راكباً اليه في رجاء او طلب ، ويراه ، في نظر حصانه ، قبل ان يكون في نظر نفسه ، ليس من الناس .

وانظر – بعد هذا في شعره ، تراه يصوِّر نفسيّة العربيّ الذي لايصبر ، ولا ينام على الضيم ، يقول (١٢٥)

بكت امُّ عمرو إذ انيخت ركائبي
بحيث الهضاب الحمر من هَمَذان
فأذرت دموعاً كالجمان تفيضها
على خدّ مِقلاق الوشاح رَزَان
وما علمت انَّ السيوف تشبّثت
بأذيال شمطاء القرون عوان
فأبكت رجالاً كالأسود ولم تُبَلْ
بكاءَ نساءٍ كالظباء غوان

ثم ما الذي يقول إنه فعله ؛ يقول :

وقمتُ فقرَّطت الأغرَّ عنانَه
وفي اليد ماضي الشفرتين يمان

ثم ماذا قال لأم عمرو ؟ قال :

ولستُ إذا ما الدهر احدث نكبة
خَفيّاً بمستن الخطوب مكاني

هذا هو الأبيوردي في احساسه العربي في همذان . إنه ينذر بقيامه بحرب عوان ، ولعلَّه اراد بهذا ان تكفكف ام عمرو دموعها التي اذرتها لحِيبته ، فقرَّط فرَسه الأغر عنانه ، وحمله سيفه اليماني الماضي الشفرتين بيده ، يريها عزمه على خوض الحرب العوان التي فاتها ان تتصور انه عازم على خوضها .

ومؤرخوه يصفونه بأنه كان كبير النفس عالي الهمَّة ، لم يسأل احداً

(١٢٥) الديوان ؛ ٦٤/٢ .

شئاً مع الحاجة والمضايقة . واحداثه مع ممدوحيه تشهد له بهذا . مدح سيف الدولة صدقة بن دبيس امير الحلّة ، قالوا : « فرحب به . . . واظهر له من البرّ والإكرام ، مالم يعهد مثلُه في تلقيّ احد ممن كان يتلقّاه » قالوا : « . . وحمل اليه خمسمائة دينار وثلاثة حصن وثلاثة اعبد . . » فوزّع الأبيوردي هذا على غلمانه ، وهمّ بالرجوع من غير ان يعلم سيف الدولة بهذا . . ولم كان هذا ! ؟ قالوا : كان الأبيوردي قد عزم على انشاد سيف الدولة قصيدة في يوم عيّنه ، واعتذر اليه سيف الدولة ووعده يوماً غير ذلك . . فاعتقد الأبيوردي ان سيف الدولة ، قد دافعه عن سماعه استكباراً ، لما يريد ان يصله به ثانياً ، وما عاد الاّ بعد ان علم ان سيف الدولة انما دافعه على الإنشاد ليتمهّل ويعدّله ما يحسن ان يكون لمثله من لقاء . وطلب من الخليفة بقصيدة مدحه فيها قطعة ارض تكون له داراً ، فمنحه الخليفة قطعة أرض نائية عن العمران ، فما كان منه إلا ان تطوّع بها لبعض الصوفية من بلده .

وهكذا ترى الأبيوردي يظل محافظاً على كرامته بين الممدوحين ولايرضى الا بما يراه لائقاً بمثله من علية القوم ؛ وتراه يردّ العطيّة لمعطيها ، ولو كان المعطي اميراً او خليفة ، اذا رآها مما لا يليق بمثله . ومع كل هذا كان يحسّ بالنقص والالم حين يمدح ، ولو كان الممدوح خليفة او اميراً او سلطاناً ؛ لأنه كان يرى نفسه ، وهو يمثل بني امية الذين يمثلون خيار العرب ، لايليق بمثله ان يمدح الناس ، مهما عظم هؤلاء الناس ، يقول :

ساءت نزاراً وغمّت يعرباً بمدحٍ
زُفّت الى ذنب اذ لم تجد راسا

(١٢٦) تنظر مقدمة الديوان ؛ ص ١٤ ، والطبقات ٤ : ٦٢ والوفيات ٤ : ٤٤٥ .

ويقول بعد هذا :

فلو رآني ابن هنـد عضّ أنملـه
غيظـاً على امويّ يُمـدح الناسا

ويقول بعد هذا ، وكأنه يعتذر لابن هنـد ؛ معاوية بن ابي سفيان عن مديحه للناس ، ويعتذر لنفسه ايضاً ، يقول :

فإن امـدح إماماً او همـامـاً
فلا جاهـاً اروم ولا نـوالا

★ ★ ★

**مديحه للعرب :**

وإذا كان المثل الأعلى عند الأبيوردي هم العرب ، فليس له ، وهو يمدح عربياً اكثر من ان يؤكد نسبته للعرب . وهذا هو اكبر شطر في المديح عنده ، وقد يجرّه هذا الى ان يذكر محاسن العرب ، وقد يزيد فيؤكد للممدوحين انه عربي ايضاً ، فيذكر قومه العرب . وربما تعدى به الأمر الى ان يزيد فيشيد بما لقومه العرب من شجاعة واباء وكرم ، وما الى هذا من الصفات الحسنة التي يعتز بها العرب ، وقد تعتز الإنسانية في الكثير منها .

يمـدح امير بني مزيد في الحِلّـة ؛ سيفَ الدوله ابا الحسن صَدَقَـة بن منصور بن دبيس الأسدي . وصدقة هذا كان شجاعاً حازماً ولي الإمارة بعد ابيه سنة ٤٨٩ ، وكان كريماً مهيباً ، حتى ان بعض وزراء الخليفة العباسي ، وجد فيه ملجأً ، حين قلق به مقامه ، وأحسّ بالخطر . ثارت في ايامه الفتن بين ابناء ملكشاه السلجوقي ، فاغتنم فرصة انشغالهم بأنفسهم واحتلّ الكوفة ، وانتظم له ملك بادية العراق .

ويمدحه الأبيوردي بقصيدة(١٢٧) طويلة تزيد على المائة من الأبيات ، يتحدث

(١٢٧) الديوان ؛ ١٥١/١ .

فيها عن شجاعته وكرمه ، وكأنه يرى اهمّ من هذا ان يؤكد نسبة صدقة ونسبة آبائه واجداده الى العرب ، وكان هذا عنده غاية المديح ، وارى ان نأخذ في الحديث عن القصيدة ، يقول في مطلعها :

بدت عَقِيدات الرمل والجُرَع العُفْر
فمسنا كما يَفتَنّ في المَرَح المُهرُ

فنراه من مطلع القصيدة يبين انهم عرب ، يطربون بكل ما هو متعلق بالعرب في باديتهم ، فحين بدا لهم الرمل في عَقِداته المتموّجة ، وفي جُرَعه العفر المنبسطة ، طربوا له ، ونشطوا نشاط المهر يمشي العِرضنة في مشيه او جريه . ثم انظر لقوله بعد هذا :

ودسن بأخفاف المطيّ بهـا ثرىً
ينمُّ على مَسْرى الغواني به العِطر

إنه يشم برائحة الثرى رائحة الغواني اللواتي سرن فيه ، فكأنه يأسف ان تدوسه ابلهم بأخفافها. ثم يأخذ في الحديث عن ديار الأحبّة ؛ عرب البادية :

كأن ديار الحي في جَنَباتها
صحائف ، والركب الوقوف بها سَطْرُ

ويبيّن انها مع انها قفر ، يستوحش الناظر عادة بها لخلوّها من اهلها ، مع هذا فإنه يظل يراها — في نفسه وخاطره — بصورتها ايام كانت آهلة بالأحبة من اهلها ، ويعجب ان يزيدها الإقواء حسناً في نفسه ، يقول :

تزيد على الإقواء حسناً كأنهم
حُلولٌ بها ، والدار من اهلها قفر

ثم يأخذ في الحديث عن هذه الديار التي كان يأوى اليها لؤي بن غالب ، وفيهم كل كميّ شجاع ، ويتحدث عن شجاعتهم ، وعن ظبائهم العفيفات ،

وعن شجاعة آل مزيد وكرمهم ورعايتهم للجار ، وان البدو والحضر يرون فيهم فوق مايرونه في الحيا . وكان من الممكن ان تقتصر قصيدة المديح على هذا وفيه كفاية ، ولكنه وهو يتحدث عن العرب يحلو له – على ما يبدو لنا – ان يفيض فيه ، ولعلّه يحسّ فيه ما يحسّه ابو نواس في حديثه عن الخمر ، او ما يحسّه ابو العتاهية في حديثه عن الزهد . ، يقول :

بني اسدٍ انتم معاقل خِندف
اذا ما شحافاه لهـا حادثٌ نكر

ومعروف أن خِندِفَ هذه هي ليلى امرأة الياس بن مضر ، وولده يعرفون ببني خندِف ، وهم : تيم وهذيل ، واسد ، وقريش . وكان بوسع الأبيوردي ان يكتفي بهذا ، ولكنّه يحلو له ، كما قلنا ، ان يأخذ في التفصيل ؛ يقول :

ولا خير إلاّ في نزارٍ ، وخيرُها
اذا حُصِّل الأنساب ؛ دُودانُ والنَّضْر

وبعد ان بيّن ان نزاراً فيها الخير ، ولكنه زاد على ان ذهب نزارٍ أو معدنها ، هم : دودان والنضر . وراح يستمر في شرحه وتفصيله :

وفرع بني دودانَ ، سعدُ بنُ مالكٍ
وكهف بني سعد سُواءة أو نصر
وناشرةٌ اعلى سُواءةَ مَحتِداً
اذا قيل : أين العزّ والعددُ الدثْر

وبعد ان بين ان سعد بن مالك هو فرع بني دودان ، وان كهف بني سعدٍ او ملجأهم سُواءةُ او نصر ، بين ان ناشرة اعلى بني سُواءة مَحتداً ، واكثرهم عدداً ، وقال :

واثبتُها في حومة الحرب مالكٌ
وعَوْفٌ ، وذو الرمحين جدّكُم عمرو

فذهب الى ان اثبت هؤلاء في الحرب مالك ، وعوف وذو الرمحين ، وهو جدّ الممدوح وقيل سُميّ بهذا ؛ لأنه كان يطعن برمحين ، ثم يأخذ الأبيوردي بالتعداد :

ومن كحُيَيّ او كجِلْدٍ ومَرْثَدٍ
وريانَ ، والآفاق شاحبةٌ غُبْرُ
وارحبهم باعاً عليٌ ومزيَدٌ
اذا السنوات الشهب قلّ بها القَطْرُ
ومن كدُبَيْس حين تُفترش القنا
اذا النقع ليلٌ والظبُى انجمٌ زُهْرُ
ومازال منصور يُنيفُ على الورى
به الشرف الوضّاح والحسب الغَمْرُ

وبعد هذا كلّه يقول للممدوح صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي :

فسرتَ على آثارهم متمهّلاً
ولم يختلف في السعي بينكما النَّجرُ
ومن ايّ عطفيك التفت تعطّفت
عليك به الشمس المضيئة والبدر

وعندنا ان الأبيوردي لم يكن موفّقاً في مديحه هذا ، من الناحية الفنيّة ؛ لأن قارئ الشعر لايصبر على قراءته . وسردُه هذا كان أنسب له النثر . وعندنا أنه ما كان ليفعل هذا ، وهو الشاعر ، لولا تعلّقه بالعرب وأنسابهم ، وحبّه في ذكر هذه الأنساب التي يرى فيها مفخرة المفاخر . وربما كان قليل من اهل الثقافة يجارونه في هذا ؛ يقول احد شُراح ديوانه ،

وهو يضبط لفظه « كجلْد » في قوله : « . . . او كجلد » يقول : « هكذا رأيته مضبوطاً بكسر الجيم في نسخة مقروءة على الأبيوردي وفيها الاجازة بخطه » الديوان ١ / ١٦٣ .

ويكتب الأبيوردي الى جماعة من بني اسد ، وقد بلغه عنهم عتاب ، يكذّب ماقرفه به بعض الماحلين ، فيما نسب اليه من هجائهم ، يقول(١٢٨) :

وإني اذا ما لجلج القـول فاخرٌ
يـؤنّب في اقوالـه ويُعنّـف
ادافـع عن احسابكـم بقصـائد
غـدا المجـد في اثنائهـا يتصرَّف
ولم اخترعها رغبـة في نوالـكم
وإن كان مشمولاً به المتضيّفُ
ولكن عُـرَيق فيَّ مـن عربيـة
يحامي وراء ابنـي نزارٍ ويأنف

وهكذا تراه يبيّن انه هو الذي يدافع عن احسابهم بقصائده ، وأن الذي يدفعه الى هذا انه فيه « عُريق من عربية » ولعلّه اراد بالتصغير هنا تصغير التعظيم ،لا التقليل ،لأننا نرى الأبيوردي لايتحدث عن نفسه وقومه الا مادحاً ، ثم يقول : إنه يجمعه بهم اللقاء بأب واحد ، وانه يرجو ان تكون النهضة او القومة الى المجد من واحد منهم ؛ يقول :

فنحن بنـو دودان فـرعُ خُـزَيمـة
يذِلّ لنـا ذو السَّـوْرة المتغَطرِف
وانتـم ذوو المجـد القـديم يضمّنا
أبٌ خِـندِفيٌّ فيـه للفخر مألف

(١٢٩) الديوان ؛ ٤٣١/١ .

فيا لَنزارٍ دعوةً مضريـةً
بحيثُ الرُدينياتِ بالدمّ ترعُف
لنـا في المعالي غايـةٌ لايرومها
سوى اسديٍّ عرَّفتْ فيه خِنـدف

وكان الأبيوردي لاحساسه بصلة العروبة التي تربطه ببني اسد ، أمراء الحلة العرب ، يلجأ اليهم كلما حزَبه امرٌ ، وكانوا لايتوانون عن اغاثته وحمايته ؛ يستوحش من وزير الخليفة فينُفِذ اليه الأمير ابو الشداد ثَروان ابن وُهيب العقيلي من يحمله الى حلَّته للصداقة التي كانت بينهما ، ويقول الأبيوردي في شكره ، من قصيدة (١٢٩) :

دعـا ابلي رجـع الحنين بمبـرك
يضيق على ذودِ الخليـط المجـاور
فعن كثب تشكو منـا سمـك الوجى
وتَطْوى الفَلا مخصوفةً بالحوافر
وتُرويك في قيسٍ حياضٌ تظلّهـا
ذوابلُ في ايـدي ليوثٍ خـوادِر

فتراه يطلب الى ابله ان تهجر هذا المبرك الذي ضاق بالمجاور لأهله ، وواضح انه يعني بأهله الوزير او الخليفة ، ويعني بالمجاور لهم نفسَه او شخصَه ، ويخاطب إبله بأن لاتكثر الحنين الى المبرك ، ويعدها بأنها عن قريب سترحل وتغذ السير وتشكو الوجى ، الذي تخصف له حوافرُها بالجلد ، ويعدها بعد هذا ، بقوله :

وتُرويك في قيسٍ حياضٌ تُظِلُّها
ذوابل في أيدي ليوث خـوادر

(١٢٩) الديوان ؛ ٤٦٨/١ .

ثم يقول ، وكأنه يعرض بالوزير ، في ان امّه ليست بعربية ، يقول :

بنو عربيات يحوط ذِمارها
كماةٌ ، كأنضاء السيوف البواتر

يخاطب ابله ؛ يعدها بأن ستحتمي الأجسام السمينة المترهلة . ثم يتحدث يخاطب إبله ؛ يعدها بأن ستحتمي بكماة ضوامر ، كالسيوف في اجسامهم ؛ وهي الصفة المحببّة للعرب ؛ لأنهم لايحبون الأجسام السمينة المترهلة . ثم يتحدث عن ابي الشداد صاحبه :

فأفرخ رَوْعي اذ قمعت به العِدا
وخفّض جأشي حين رفّع ناظري

ثم يأخذ الأبيوردي بإغرار صاحبه ابي الشدّاد بالوزير وبدولته ؛ يقول :

فإيهٍ ابا الشدّاد ! إن وراءنا
احاديثَ تُروى بعدنا في المعاشر

ثم يلتفت الى نفسه متحسراً ، وهو يخاطب صاحبه ابا الشدّاد ، ويعنيه بقوله :

فمن لي بخِرقٍ ثائرٍ فوق سابحٍ
تردّى بإعصارٍ من النقع ثائرِ

ثم يأخذ في وصف هذا الخرق الثائر المغير على فرسه وسط اعصار من النقع ، بأن يقول :

اذا حفزته هِزَّة الروْع خِلتَه
على الطرف صقراً فوق فتخاءَ كاسِرِ

فهو يصفه بأنه من عشّاق الحرب ؛ شأن العرب ، فإذا حفزته هِزَّة الروع استعجل ولم يتوان . ورأيته كالصقر ، فوق فرسه الشبيهة بالعقاب الكاسِرة في سرعتها ، حين تنقض للصيد ، ثم انظر كيف يحرك فيه الشيمة العربية بقوله :

أترضى وما للعرب غيرَك ملجأٌ
توسّدَهم رملي زرودٍ وحاجر
فأبن الجيادُ الجردُ تخطو الى العدا
على عَلَقٍ تَروى به الأرضُ مائر
وفتيانُ صِدقٍ يصدرون عن الوغى
وايدي المنايا داميات الأظافر

★ ★ ★

ويمدح الأبيوردي بعض الرؤساء من اسرته ، ويهنئه بعيد الأضحى ، فيجعل مديحه وتهنئته حماساً وتحريضاً ، على ترك ماهم عليه ، والنهوض الى الحرب ، ويذكّرهم بأن الأجل محتومٌ مقدّر ، وان الشجاعة والإقدام لايغيّران وقته ، ولا يستعجلانه ، وفرحته تكون يوم يرى حرباً يخوضها ، وقد طمست أرجل الإبل والخيل في الدماء ، يقول (١٣٠) :

من رام عِزّاً بغير السيف لم ينل
فاركبْ شبا الهُندوانياتِ والأسَل
ما للجبان ! ألان الله جانبهَ !
ظن الشجاعة مرقاةً الى الأَجَل
حتى ارى مشرفيات يضرّجها
دمٌ رست فيه ايدي الخيل والإبل

ويقول لبعض بني عمه من آل معاوية الأصغر (١٣١)

ياسعدُ ذا اللمة المرخاة ما عِلقت
منك الخطوب بكابي الزند هِلْباج

(١٣٠) الديوان ؛ ١/٢١٥ .
(١٣١) الديوان ؛ ١/٢٩٥ .

يخاطبه بأن ما زال في ريعان الشباب ، وهو ليس بالعاجز ، يكبو زنده ، وليس بالهلباج : الأحمق ، ثم انظر كيف يحمّسه على القيام والثورة ؛ :

دهرٌ تذأّب من ابنائه نَقَدٌ
فأوطئت عرب اعقاب اعلاج

يقول : إن النقد وهو جنس من الغنم القصار الأرجل ، القباح الوجوه ، قد تذأبت ، اي صارت كالذئاب ، وان العرب ، وهم عنده اشرف الناس ، قد خضعت للأعلاج ، وهم العتاة من غير العرب ، ثم يصيح صيحة الحجّاج ابن يوسف في خطبته المشهورة :

واينع الهامُ لكن نام قاطفُها
فمن لها بزيادٍ او بحجّاج

ويقول . وكأنه يحسّ ان ابن عمّه هذا يقول : هذا شأن الملوك ، ولعلّه يعني الخلفاء وهم الذين سيكفون العرب ، ويكفوننا امر هؤلاء الأعلاج . فيقول الأبيوردي :

وكم أهبنا اليها بالملوك فلم
نظفَر بأروعَ للغمّاء فرّاج

ثم يقول له :

وانت يابْنَ ابي الغَمْرِ الأغرّ لها
فقلْ لذودٍ اضاعوا رعيَها :عاج

يقول : لقد اضاع الرعاة ، وهو يعني الحكام – رعاية الإبل ، وهو يعني الناس ، وعليك ان تكون انت راعيها ، وان تزجرَها وتصيح بها : عاجِ : وهو صوت تزجر به الإبل .

## حنينه للعروبة فى مديحه للخلفاء :

والعجب ان يمدح الأبيوردي خلفـاء بني العباس ، وان يصرّح بنسبته لبني اميّـة في مديحهم ، بل نراه يشيد بأمويته ، وهو يمدح الخلفاء من بني العباس . أتراه ، وهو العـالم النسّابة ،خفي عليه موقف العبـاسيين من الأمويين !؟ أتراه فاته ان ابا نواس حين اراد هجاء اسماعيل بن صبيح امين سرّ الخليفة الأمين ، لم يجد اوجع في هجائه من ان يتهمه بولائه لبني اميـة . أفاته : انه كتب قصة للخليفـة المستظهر بالله ، وكتب على رأسها : الخادم المعاوي ، وان الخليفة كَـره النسبة الى معاوية واستبشعها فأمر بكشط الميم ، ورد القصة ، فبقيت : الخادم العاوي » ! ؟ .

مع هذا كلّـه نرى الأبيوردي يصرّ على عروبته ، وعلى امويّته في كل مديح يقوله لخليفة او وزير ، ويصرّ على هذا ، وكأنه ينوي مقدّماً ان يتحمـل في سبيله كلّ عتب او غضب او جفاء .

ويبدو لنـا ان الأبيوردي ظل ينظر الى نفسه ، لا على انه شاعر يقول المديح يلتمس به العطيّة ، شأن الشعراء ، ولكنه كان يرى نفسه ، كما يقول عنها (١٣٢) :

انا ابن الأكرمين ابـاً وامّـاً
وهـم خيـر الورى عـمّـاً وخالا
نمـاني من اميّـة كلّ قَـرْمٍ
تردُّ البزْلَ هـدرتـهُ إفـالا
فإن افخـر بآبائي فـإني
اراهـم اشرف الثقلين آلا

(١٣٢) الديوان ؛ ١٤٢/١ .

وإن امدح إماماً او هُماماً
فلا جاهاً اروم ولا نوالا

وليس بغريب ان يعد المؤرخون شعراء الخليفتين اللذين عاصرهما الأبيوردي وهما المقتدي بأمر الله ، والمستظهر بالله ، ولا يعدّون الابيوردي شاعراً معهم .

نقول : يمدح الخليفة المقتدى بأمر الله ، فيقول في قصيدته :

خليليَّ من عُليا قريش هُديتما
اشأنكما في حبّ علوةَ شاني ! ؟
فما لكما يوم العُذيب نقمتما
عليَّ البُكا ، والأمر ما تريان ! ؟

ثم يقول :

اما فيكما من ديزَةٍ أمويّةٍ
لأروع في اسر الصبابة عان

وقد يمدح فتراه لا يستكين . ولا يتذلّل ، بل يقول بلسان المفتخر أو المهدّد ! يقول في مديحه للخليفة (١٣٤) :

غداً أبطن الكشح الحُسام المهنّدا
إذا وَقَدَ الحيَّ الهوانُ وأقصدا

يقول : غداً يجعل السيف في كشحه . وكأنه ينظر في قوله هذا ، الى بيت طرفة :

فآليت لا ينفك كشحي بطانةً
بعضبٍ صقيل الشفرتين مُهنّد

(١٣٣) الديوان ؛ ٣٨٦/١ .
(١٣٤) الديوان ؛ ٤٤٣/١ .

يقول : غداً يجعل السيفَ في كشحه بعد ان رأى الحيَّ قد وَقذَهم الهوان اي رماهم وقتلهم في اماكنهم . ويقول عن نفسه :

ولله فهريٌّ إذا الـوردُ رابـــه
ابى الرِّي واختـــار المنيّة موردا

ثم انظر بمـــاذا يحلف :

حلفتُ بفتلاء الـــذراع شملّـــةً
تخبُّ بقـــرمٍ مـــن اميَّة أصيـــدا

إنه يحلف بناقة مفتولة الذراع سريعة السير ، تخبُّ بسيِّد كريم – يعني نفسه – من بني امية ، ولا يلتفت الى احد كبراً وانَفَةً .

ويمدح الخليفة يهنيه بمولود ، فلا ينسى ان يذكر نجداً والحنين اليها ، يقول في مطلع القصيدة (١٣٥)

بعيشـــكمـــا يا صـــاحبيَّ دعـــانيا
عشيّة شـــام الحيُّ برقـــاً يمانيـــا

الى ان يقول :

فيا جبلَ الريّان أيـــن مـــواردٌ
تركت بهـــا ماءَ الأنَيعـــم صاديا

فتراه يحن الى جبل الريّان بأعلى نجد في بلاد بني عامر ، ويقول إنه – وهو على ظمأ – عافت نفسُه ماء الانيعم ، والانيعم قريب من الكوفة ، لأنه لم يستطب ماءَ بعد ان تذكرّ الريانَ وموارده .

ثم انظر كيف يعاتب الخليفة ، ويعرّض بوزيره الذي كان – كما يقول الأبيوردي يقصده بالأذيّة ، يقول (١٣٦)

(١٣٥) الديوان ؛ ١٠٣/١ .
(١٣٦) الديوان ؛ ٣٣٣/٢ .

الا بأبي اسدُ الحمى وظبـــاؤه
ومنعرج الوادي مصيفاً ومَربعـا
معي كلُّ فضفاض الرداء سميدَعٌ
اصاحب منه في الوقائع اروعـا

ثم يأخذ في الحديث عن هذا الصاحب الكريم ، السيد الشجاع ، فيبيّن انّه عربي من نجد ، غذته رباها فشبّ كأنه شبا مشرفيّ .

غـذتـه ربا نجـدٍ فشبّ كأنه
شبا مشرفيٌّ يقطـر السـمّ مُنقعا

هذه نشأته وشجاعته ، اما منطقه العربي ، فيقول فيه :

يريـق اذا ارتـج الندِيُّ بمنطقٍ
كلاماً كأن الشـيح منه تضوّعـا

وانظر لرائحة الشّيح ، نبات نجد والبوادي العربية ، التي تفوح من كلامه ، ويزيد الأبيوردي في حديثه عن صاحبه العربي الذي يهدّد به :

ويروي انابيـب الرمـاح بمأزق
يظلّ غـداة الروع بالدمّ مُترَعا

وبعدَ وصفه هذا ، يقـول عن حاله معـه :

عركتُ ذنـوب الحادثـات بجنبه
فهبَّ مشيحاً لا يـلائـم مضجعـا
اهبتُ وصرف الدهـر يحرق نابَه
به آمنـاً ، ان استقيم ويضلعـا
فأقبل كابـن الغاب عبلاً تليله
ولم يستلنْه القِرن ليناً وأخـدَعـا

ثم يقول :

فسكّن روعي والرمـــاح تزعزعت
وخفّض جأشي والعجـــاج ترفّعـــا

ثم يتحدث الأبيوردي عن شجاعته هو ، بعد ان افاض في الحديث عن شجاعة صاحبه العربي من نجد ، يقول :

وما انا ممن يملأ الهـــولُ صـــدرَه
وإن عضّه ريب الزمان وأوجعـــــا
اذا ما غســـلتُ العار عنّي لم أُبَـــلْ
نداءَ زعيـــم الحيّ بشّر أو نعى

وعندنا ان هذه القصيدة ، وإن سميت عتاباً او مديحاً ، هي اقرب الى التهديد منها الى المديح او العتاب . ولولا ان عنوانها جاء فيه انها عتاب للخليفة وتعريض بالوزير ، لما تصوّرها القارىء يقولها شاعر ، ايّ تكون منزلته ، عتاباً لخليفة وتعريضاً بوزير ، ولكنّه الأبيوردي يرى نفسه فوق الشعراء بل يراها فوق الناس .

وفي ديوان الأبيوردي : « وكتب الى المواقف الشريفةِ المستظهرية ، اعزّ الله نصرها يلتمس داراً يسكنها (١٣٧) . ونقرأ القصيدة ، وهي في نحو من الأربعين بيتاً ، مدح الابيوردي فيها المستظهر بالله ، ووصفه بأحسن الصفات التي وصف بها جدّه العباس ، واتصف بها الخلفاء الراشدون الأربعة ، ووصف بها خلفاء بني العباس من المنصور الى ابيه المقتدي بأمر الله ، وبعد كل هذا ، قال الأبيوردي :

(١٣٧) الديوان ؛ ٦٧٢/١ .

فهذه شتوةٌ القت كلاكلها
حتى استبدَّ بصفو العيشة الكدر
ومنزلي أبلت الأيام جدَّتُه
فشفّني المبليان : الهمُّ والسهر
وللفؤاد وجيب في جوانبه
كما يهزُّ الجناحَ الطائر الحذِرُ
والسقف يبكي بأجفان المشوق إذا
ارسى به هَزِم الأَطباء منهمرُ

وعندنا انه افسد كلَّ ما قاله في مديح الخليفة ، وفي استعطافه بقوله :

وابنُ المعاويّ يهوى ان يكون له
مغنى ببغداد لا يُخشى به الغيرُ

ولم ينفعه ان قال بعدها . بعد ان سمّى نفسه « بالمعاوي » :

مثوى يدافع عن كتبي واكثرها
فيه مديحك ان يغتالها المطر .

قال : « فلما عُرضت عليه هذه القصيدة وقّع له بقطعة ارض من الأجمة نائية عن العمران ، وهي قريبة من الثريا فوهبها لبعض الصوفية من اهل بلده . وقال في ذلك (١٣٨) :

إمام الهدى ! لازال عصرك باسماً
عن الشرف الوضّاح والكرم المحض
ارى الأجَمَ استولى عليه قطينه
وفضّل في سكناه بعضٌ على بعض

(١٣٨) الديوان ؛ ٦٧٧/١ .

ونحن بحيث الذئب مـات مروّعاً
يقلّص جَفنيه الحذار عن الغمـض
وقد كنت ارجو ان اخيّم عندكـم
بمنزلة بين الرفاهة والخفـض
طلبتُ الثريـا في السماء بمدحكـم
فأنزلتمونـي بالثريـا عـلى الأرض

**مديحه للوزراء :**

ودرج الأبيوردي على الحديث عن العرب ، وعن تعلّقه بهم . يراهم المثل الأعلى في كل شيء ، ويرى نفسه لا تطيب ولا تهش الا بذكرهم . وكأننا به يذكرهم لتهيج عاطفته وتعينه على الشعر الحسن . يطلب من الوزير نظام الملك استخلاص قريته ممن عدا عليها واغتصبها ، وكان الوزير قد وعده بردها اليه .. واستبطأ الأبيوردي انجاز الوعد ، فقال يذكرّ الوزير ، ويمدحه . وفي القصيدة يتحدث عن نفسه شأن الشعراء في مقدمات قصائدهم ، يقول في مطلع القصيدة (١٣٩)

هي الصبابـة مـن باد ومكتمـن
طوى لها الوجد احشائي على شجن
وحنّةٍ كأوار النـار يضرمهـا
قلب تملّك رق المدمـع الهتـن

ثم يأخذ في الحديث عن نجد ، يقول :

فحنّ والوجد يستشـري عليـه كمـا
حنّ الأعاريب من نجد الى الوطـن

(١٣٩) الديوان ؛ ٣٥٤/١ .

تذري دموعَهم الذكرى اذا خطرت
رويحة الحزن تُمري درَّة المُزُن

الى ان يقول :

وان سرى بارق عن ارضها طمحت
عين تقلِّص جفنيهـا عن الوسـن
واستمل منها اذا ريحُ الصَّبا نسمت
حديثَ نَعمان والأنباء من حَضنَ

وبعدُ أترى الوزير نظام الملك ، يؤثر فيه ما يقوله الأبيوردي عن البرق يسري من جهات نجد فيمنع عين الأبيوردي من الوسن او النوم . ويؤلمه ان استملي الأبيوردي ريح الصبا واحسَّ فيها حديث نَعمان ، وهو واد قريب من عَرَفات بالحجاز ، والأنباء من حَضَن ، وحَضَنَ جبل بأعلى نجد ! ؟ أليس الأولى بالأبيوردي وهو يذكّر باسترداد ضيعته « بجاورس » من – اعمال « نسا » بخراسان ، ان يقول : ان الصبا تهب منها فتستهويه ، وانه يستملي انباءها لشدة تعلّقه بها ، فيعطف قلب الوزير نظام الملك عليه ؟ ولكنه الأبيوردي لا يحلو له الحديث الا عن العرب وعن نجد ، وحين يخطر له هذا ينسى كلّ شيء غيره .

★ ★ ★

ويمدح الأبيوردي قوام الدين ابا نصر احمد بن الحسن بن علي وزير السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي (١٤٠) . ويتحدَّث عن نفسه ايضاً ؛ فلا غير ما يتصل بالعرب من الجَرْعاء . والجرعاء : هي الرملة تجترع الماء ، وعالج ، وهو موضع ببادية العرب ، والنيب وحنينها الى منازعها ، يقول (١٤١) :

(١٤٠) لقّب بألقاب ابيه : قوام الدين ، نظام الملك ، صدر الاسلام .
(١٤١) الديوان ؛ ١/٥٦٣ .

طرقتنـا والركب غيـد الطُـلى
تخـدي بنـا العيس المطـاريـبُ
ونحـن بالجـرعـاء من عـالج
حيـث تُطيـل الحنَّـة النيـبُ

ويتحدَّث عن النسوة هناك فيقول :

فقلن إذ ابصرنني باسمـاً
حين زوى الأوجـه تقطيـب
ايَّ هُمـام منك قد رَشَّحت
للمجـد آبـاءُ منـاجيـب
فـي غلمةٍ مرُدٍ تمطّـى بهم
الى الوغـى جُردٌ سـراحيـب
خيـل عِرابٌ فـوق اثباجهـا
في حومـة الحـرب اعاريـب

وهكذا تراه يمتدح الوزير ، فلاينسى نفسه واهله المناجيب ، ويمتدح اصحابه على خيولهم الجرد العراب في حومة الحرب ، وهم الشبّان العرب .

وبعدُ ، أترى وزير السلطان السلجوقي التركي يرضيه ان يقال هذا هذا ؟ وان يقال في مديحه ، عن العرب ! ؟

ويمدح نظام الملك ابا علي الحسن بن عليّ بن اسحاق ، وقد فتحت قلعة جعبر سنة سبع وسبعين واربعمائة ، ودخل الأتراك انطاكية ، وكان هذا في زمن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن الب ارسلان ، ويقول الأبيوردي في التهنئة بهذا ، ولا ينسى العرب وحديثهم ايضاً ، مع ان السلطان تركي وجنده الذين افتتحوا القلعة اتراك ايضاً ، يقول في مطلع (١٤٢) القصيدة :

(١٤٢) الديوان ؛ ١/٣٠١ .

لمعت كناصية الحصان الأشقر
نار بمعتلج الكثيب الأعفر
تخبو وتوقدها ولائدُ عامر
بالمندليّ وبالقنا المتكسّر

فتراه لا ينسى ان يشيد بقبيلة عامر الشجاعة المحاربة، ويذكر ولائدها، اللواتي يوقدن النار بعود البخور العطر الرائحة، وبالقنا المتكسّر من الحروب الكثيرة التي يخوضونها .

ويكتب مهنياً سيّد الوزراء ابا نصر ، احمد بن الحسن بن علي بن اسحاق ، وقد استوزره السلطان المعظّم غياثُ الدين ، فلا ينسى ان يشيد بأمويّته ، وباصحابه الأمويين ، يقول : (١٤٣) :

ومكتحلات بالظلام اثيرها
وهنّ كأشباح الأهلّه نُحَّلُ
وحولي من رَوْقي أميَّة غلمة
بهم تُطفأ الحرب العوان وتُشعَلُ

والروق : في الأصل : القَرن ،وقد جعله هنا عبارةً عن الطرفين المتقدمين في النسب . ويقول :

سريتُ بهم والناجيات كأنها
رماحٌ بأيديهم من الخطّ ذُبَّلُ

ثم انظر هذا الذي يقوله لوزير السلطان السلجوقي عمّا ترومه هذا الغِلْمَةُ من بني اميّه :

يرومون امراً دونه جُرَع الردى
تُعَلُّ به نفس الكميِّ وتُنهل

(١٤٣) الديوان ؛ ١/٥٩٨ .

ويقول :

ولم نغترب مستشرفين لثروةٍ
فمرعى مطايانا بيَبْرين مُبْقِل

ويبرين : رمل لا تدرك اطرافه عند حَجَرْ اليمامة ، او في اعلا بلاد بني سعد .

وفي ديوانه : « وقال يمدح بعض وزراء العصر » (١٤٤) :

لك الخيرُ هل من لفتةٍ من متيّم
مجالٌ لعتب أو مقال للوّم

وما نظري شطر الديار بنافع
وايّ فصيح يرتجى نفعَ اعجم

وعندنا انه ربما عرَّض بالشطر الثاني من البيت الثاني بالوزير الذي اخفى ذكر اسمه في ديباجة القصيدة ، اذ نسبه الى العجمة ، وقد مرَّ بنا انه التجأ الى الامير العربيّ ابي الشدّادفي الحلّة ، حين استوحش من وزير الخليفة ، فلعلَّ هذا الوزير هو ذاك الذي استوحش منه . وواضحٌ ان الأبيوردي عنى « بالأعجم » هنا الطَّائِلَ الذي ينظر اليه وكأنه تطّلع الى اجابته ، ولكنه وقد اجرى كلامه مُجرى المَثَل ، نراه قد جعل الفصيح لايرتجي نفع الأعجم .

★ ★ ★

وهكذا نرى ان الأبيوردي ، لايغفل عن ذكر العرب ، وعن الثناء عليهم في كل مجال مناسب او غير مناسب .

---

(١٤٤) الديوان ؛ ١/٥٨٣ .

استولى الفرنج على بيت المقدس سنة اثنتين وتسعين واربع مئة ، فأنشأ الابيوردي قصيدة يحرّض فيها المسلمين على القيام قـومة واحدة ، لردّ الفرنج المغيرين على بلادهم ، والقصيدة مشهورة ، مطلعها (١٤٥) :

مزجنـا دماءً بالدموع السواجـم
فلم يبق منّـا عَرْصةٌ للمرَاحِـم

وفيهـا :

فإيهٍ بني الإسلام إن وراءكـم
وقائعَ يُـلحِـقْن الذُّرا بالمناسم

ويقول :

دعوناكم والحرب ترنو مُـلحَّـةً
الينـا بألحاظ النسور القشاعم

وبعد دعوته هذه لبني الإسلام ، وهو يدري ان بني الإسلام في ايامه اهل الدولة ، والسلطة ، والحرب ، كانوا غير العرب ، ومع هذا ، فهو يقول:

نراقب فيكم غـارةً عـربيّـةً
تُـطيـل عليهـا الروم عضّ الأباهم

نقول : لو كان غير الأبيوردي لقال غارةً تركيّـة او فارسية ، او اعجميّـة و . . ولكنّـه الأبيوردي لايرى مَن يستحق الإشادة غير العرب .

وهجر الأبيوردي العراق وعاد الى فارس ، ولكنه ظلّ يحن الى العراق . وفي كتبه التي ضاعت ولم تصلنا ، كتاب عنوانه : « تعلّـة الى سَـال العراق »

(١٤٥) الديوان ؛ ١٥٦/٢ . ويروى شطر البيت الأول بروايات مختلفة ، منها : « عرضة للمزاحم » في تأريخ الخلفاء . وفي مختصر اخبار الخلفاء : « فلم يبق فيها عرضة للمزاحم » .

وعنوان الكتاب عندنا يفصح عمّا فيه . وفي ديوانه عدد من القصائد يذكر فيها العراق ، ويحن اليه ، يقول من قصيدة (١٤٦) :

القى الخطوب ، ولي نفس تشيّعني
غضبي ، وأجزع إمّا بان جيرانُ
اكلَّ يوم نوىً تشقى الدموع بها
الى غوارِبَ تفريهن كيران
فالعرب مثوى اصيحابي الذين هم
عشيرتي ، ولنا بالشرق إخوان
أستنشق الريح تسري من ديارهم
وهناً كأن نسيم الريح ريحان
فياسقى الله زوراء العراق حيا
تروى بشؤبوبه قور وغيطان
فقد عرفت بها قوماً ألفتهم
كما تمازج ارواحٌ وابدانُ

وفي ديوانه (١٤٧) : « وكتب الى اصدقائه بمدينة السلام ، من مستقره باصفهان » والقصيدة طويلة باكية ، يستهلّها الأبيوردي ، بقوله :

أضاء بُريق بالعذيب كليل
فشنيُ نجادي للدموع مسيل

ولا شك في انه اراد بتصغير البرق تصغير التحبب ، وإن وصفه بأنه كليل ، وقال : إنه اضاء بالعُذَيب ؛ والعُذيب تصغير العَذب ، وهو ماء طيّب قريب من القادسيّة ، فهزّه الشوق وأسال دمعه ، حتى صار ثني نجاده مسيلاً للدمع ، وقال :

(١٤٦) الديوان ؛ ١/٥١٢ .
(١٤٧) الديوان ؛ ١/٥٧١ .

فآهاً من البرق الذي بَزَّ ناظري
كراه ، واسراب الدموع هُمولُ

ثم بيّن ان ناقته حنت للبرق لأنها تذكّرت فيه منازعها بنجد تألق نجدياً فحنّت نُوَيقةٌ

يجاذبها فضل المِراح جَديل

ويقول بعد ذلك إنّ به من الحنين الى العراق او الى العذيب ، ما بالناقة من الشوق والحنين الى نجد ، ولكن ، العبشميّ – يعني نفسه – يلوذ بالصبر الجميل ، يقول :

وبي ما بها من لوعةٍ وصبابةٍ
ولكنّ صبرَ العبشميّ جميلُ

ثم يأخذ في الحديث عن نفسه ، وعن شوقه الى العراق ، يقول :

ومالي إلاّ البرقَ يسري او الصبا
الى حيث يستن الفراتُ رسول

ويقول : إن ركائبه تحن الى ماء الصراة ببغداد ، على حين أن اصحابه على نهر زندرود بإصفهان :

تحن الى ماء الصراة رَكائبي
وصحبي بشطّيْ زرنروذ حُلول(١٤٨)

ويتعجب مما بين هذا وهذا من البعد ، ومما يُثار بينهما من شوق !

---

(١٤٨) الصراة : نهر ببغداد ، وزرنروذ : تعريب لـ زنده روز : نهر باصفهان وانظر مقال استاذنا المرحوم الدكتور عبدالوهاب بمجلة الرسالة ؛ ٨٦٠/٩ .

أشوقاً واجواز المهامه بيننا
يطيح وجيفٌ دونها وذميل (١٤٩)

ثم يتحسَّر ويتمنى الرجوع :

الا ليت شعري ، هل اراني بغبطةٍ
ابيتُ على ارجائها وأقيل

ثم انظر كيف يتذكّرها ، وكيف يرى كل ما فيها بالصورة التي يتخيلها في نفسه :

هواء كأيام الهوى لا يُغِبُّه
نسيم ، كلحظ الغانيات عليلُ
وعصر رقيق الطرتين تدرّجت
على صفحتيه نظرةٌ وقبول
وارض حصاها لؤلؤ وترابها
تضوَّع مسكاً ، والمياه شَمولُ
بها العيش غضٌ والحياة شهيَّةٌ
وليلي قصير والهجير أصيلُ

ويلتفت – بعد هذا كلّه – الى اخلائه ببغداد ، يسائلهم عما في نفسه ، يقول :

فقلْ لأخلائي ببغداد هل لكم
سلوٌّ ؟ فعندي رنةٌ وعويل
ترنّحني ذكراكم فكأنما
تَميلُ بي الصهباء حين اميل

(١٤٩) المهمه : المفازة البعيدة . واجوازها : معظمها واواسطها . الوجيف والذميل : نوعان من السير السريع .

لئن قصُرت ايام انسي بقربكم
فليلي على نأي المزار طويل

ثم يلتفت الى العجم ، واين هم من العرب في نفسه ! ؟

وحولي قوم يعلم الله أنني
بهم – وهم بي يكثرون – قليلُ

ثم تأخذه الذكرى الى ارض قومه وبيوتهم بالحجاز ، ويتحسَّر كيف اصبحت اطلالاً ، تسكنها الظباء مع اطلائها ، وفي هذا غاية الوحشة فيها عن اهلها ؛ لأن الظباء . مع اطلائها لاتألف من الأطلال إلاّ ما هُجر وطال هجرانه ، وطالت خلوته ، يقول :

ولو لم نرِم بطحاء مكة أشرقت
بها غُررٌ من مجدنا وحُجول
إذا ذُكرتْ آل ابن عفّان اجهشت
حُزونٌ ، ورنَّت بالحجاز سهولُ
ترشّح ام الخِشف اطلاءها بها
وتُسْحبُ فيها للرياح ذيول

ثم يأخذه الحماس فيصيح بصاحبه ابي حسّان يطلب اليه ان يثير جمالهم للرحيل ؛ لأن البأس النزاريّ انكر استكانتهم في غربتهم ، وكذلك انكرت عليه هذا خِندف ، قبيلته ، بل عيرّته رضاه بغربته بنت المعاويّ ، ولعلّها زوجته ، يقول :

أثِرْها ابا حسّان حُدباً كأنها
نُسوع على أوساطهنّ تجولُ
فقد انكر البأس النزاريُّ مكثنا
وخِندِف بنت الحميريّ عذول

تعيرّني بنت المعـاويّ غربتـــي
وكل طلـوع يقتفيـه افـــولُ
وتعجب اني من ممارسة النـوى
نحيفُ ، وفي متـن القنـاة ذبـول
لئن انكرت منيّ نحـولاً فصارمي
يغازلـه في مضـربيـه نحـــول
ولم تبـدع الأيـام فيّ بنكبـةٍ
فبينـي وبيـن النائبـات ذُحـــول

وواضح ان الأبيوردي لم يأخذ بثأره من الأيام . لقد ظلت تتسحّبُ به ، حتى مات مسموما بإصبهـان !

ولا بأس ان نختم حديثنا عن الأبيوردي وتعلّقه بالعروبة ، وبالعرب وبلدانهم بأجزاء من قصيدة كتبها الى الخليفة ، بعد ان صدرت اليه كتب من الديوان العزيز ، عوتب فيها على مفارقة بغداد ، رغبةً في عوده اليها (١٥٠) ، فيها :

لكَ من غليل صبابتي مـا اُضمِـرُ
واسِـرٌ من الم الغـرام واظهـرُ
وتذكّري زمن العُـذيب يشِفُّـني
والوجد ممنوٌّ به المتذكّر (١٥١)

ثم انظر ماذا يتذكّر ! إنه يتذكر شبابه ، وملاعب شبيتبه في بغداد ، يقول :

إذ لمّتي سمحـاء مـدّ على التقى
أظلالهـا ورق الشبـاب الأخضـر

(١٥٠) الديوان ؛ ١/٣٣٩ .
(١٥١) ممنو مبتلى .

هو ملعبٌ شرِقت بنا ارجاؤه
اذ نحن في حُلَل الشبيبة نخطِر
فبحرّ انفاسي وصوْب مدامعي
أضحت معالمه تُراح وتُمطر
وأجيلُ في تلك المعاهد ناظري
فالقلبُ يعرِفها وطرفي يُنكِرُ
واردْ عَبْرتي الجموحَ لأنّها
بمقيل سِرِّك في الجوانح تُخبِرُ
ويأخذ في مديح الخليفة . . . ثم يتحدّث عن بغداد :
بغداذَ ! ايّتها المطيُّ فواصلي
عَنَقاً تئن له القِلاص الضُمَّرُ
إني وحقّ المستجنّ بطيبةً
كَلِفُ بها والى ذَراها أَصْوَرُ (١٥٥)
وكأنني مما تسوّله المنى
والدار نازحة اليها انظر
ارضٌ تجرّ بها الخلافة ذيلها
وبها الجباه من الملوك تعفَّر

(١٥٢) شرقت :امتلأت وغصّت .
(١٥٣) تراح معالمه بانفاسى ، وتمطر بصوب مدامعى .
(١٥٤) بغداذَ : منصوبة بفعل مقدّر . اى اقصدى بغدادَ . عَنَقا : نوع من سير الابل . والقلاص : جمع القلوص : الناقة الشابة . والضمر : النحيفات .
(١٥٥) طيبة : مدينة الرسول (ص) وهو يقسم به صلى الله عليه وسلم . واَصوَر : مائل العنق .

فكأنهـا – جُليتْ علينـا – جنَّـةٌ
وكأن دجلـة – فاض فيهـا – الكوثر

وهواؤهـا ارج النسيـم وتُـربُـهـا
مِسكٌ تهـاداه الغـدائر أَذْفر (١٥٦)

الى ان يقـول مستحسراً :

فصـددت عـنها إذ نبـا بي معـشر
وبغـى عـليَّ من الأراذل معـشر

من كل ملتحفٍ بمـا يصـم الفـتـى
يؤذي ويظلـم او يخـونُ ويغـدِر

فعففت منـه يـدي مخـافـة كـيده
إن الكريم عـن الأذى لايصبـر

★ ★ ★

(١٥٦) الذَفَر : بالتحريك ؛ كل رائحة ذكيّة .